هيثم موسى

جالفنيزم

رواية

GALVANISM

إبحار
للنشر والتوزيع

ساحر الكتب

إهــداء

إلى من يُمسك بأوراق الرواية وقد آمن بموهبتي، وعلم مقدار ما أبذله من مجهود في كل ما أخُطّه بقلمي.

إلى الصديق العزيز..

أ/ كمال علي

لما بذله من جهود في معاونتي على خروج العمل بهذا الشكل.

"The boundaries which divide life from death are at best shadowy and vogue, who shall say "where the one ends, and where the other begins?".

- E.A.POE

"إن الحدَّ الفاصل بين الحياة والموت غالبًا ما يكون ضبابيًا وغامضًا، من يدري أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر؟".

"إدجار آلان بو "

المقـدمة

على الرغم من كون خاطرة رواية (فرانكنشتاين/ Frankenstein) قد نبعت من كابوس راود الكاتبة (ماري شيلي/ Mary Shelley) في أحد الأيام أثناء نومها، إلا أنه قد رجَّح الكثيرون أن تلك الفكرة قد تأثر بها عقل الكاتبة، لما عهدته في القرن التاسع عشر من تجارب لإحياء المتوفين[1]، وقد خُيّل للجميع في تلك الآونة من العصر أن إحياء الموتى هو أمر على وشك التحقق في المستقبل القريب.

أشارت الكاتبة بتأثرها بالمساعي العلمية للعالم الحقيقي الذي حرَّض خيالها على كتابة تلك الرواية في النسخة المُعدلة منها التي صدرت عام 1831م، لتأتي الكاتبة في الفصل الثاني بذِكر الممارسات العلمية التي كانت تطبق في ذلك العصر من خلال استخدام الكهرباء في التجارب لمحاولة صحوة الموتى، وكانت تلك التجارب تسمى حينها بالـ (جالفنيزم/ Galvanism).

اتخِذ ذلك المسمى استنادًا لرائد تلك الفكرة، وهو العالِم (لويجي جالفاني/Luigi Galvani) الذي قام باكتشاف قُدرة الكهرباء على إحياء حركة العضلات والأعصاب من خلال سريان الطاقة الكهربائية بها.

والآن.. سوف أترك بين أيديك رواية بُنيَت على أحداث حقيقية، امتزج الواقع بها بالخيال، لتجاورني الخُطى نحو قصة (آل جلفاني)، أولئك من ظنوا أن الموت هو داء للبشرية، آملين بقدرتهم على أن

يكون شفاء ذلك المرض على أيديهم وحدهم، ولهذا فقد تظن للوهلة الأولى من قراءتك أن مثل هذا الأمر مستحيل الحدوث، ولكن كلما توغلت أكثر في صفحات الرواية، كلما أدرك عقلك ما لم يتوقع يومًا تصديقه.

الفصل الأول

(محض صُدفة)

جامعة (براندرسون/ Bradson) العلمية بلندن.

أشهرٌ قليلة تفصل الطُلاب على انتهاء العام الدراسي، امتلأت أروقة الجامعة بضجيج طلابها في بداية يوم جديد، يتزاحمون في هرجٍ ومرج بينما تمتزج أصواتهم ما بين حديث ومُزاح، ومن وسط تزاحمات الطلبة اندفع أحدهم في عُجالةٍ من أمره ليخترق تجمعاتهم العبثية في الطرقات، يعلو وجهه علامات التوتر الجلية؛ نتيجة تأخره عن محاضرته الأولى، إنه يعرف عاقبة وصوله متأخرًا عن مُحاضرة العالِم (لويجي/ Luigi) بالتحديد دون غيرها.

توقف بغتةً عند باب غرفة المعمل وهو يُمعن النظر من خلال زجاجه السميك نحو الطلبة المنكبين حول إحدى الطاولات الطبية، أخذ من الشهيق مليًا حتى تهدأ أعصابه، ليمسك بالمقبض ويفتح الباب على استحياء من أمره، ويدلف في هدوء.

التفت بعض الطلاب تجاه الزائر الأخير فور دخوله، ثم عادوا سريعًا للنظر أمامهم مجددًا وهم يصبون تركيزهم لما يحدثهم الطبيب به، فتحرك الشاب على هُدى من أمره يتحسس خطواته أملًا في الانخراط بينهم دون أن يلحظه المُحاضر.

- "لقد تأخرت كعادتك سيد (ستيف)".

قبض الشاب جفناه في حسرة بعد سماعه لتلك الكلمات، وهو

يهمهم لاعنًا حظه العثر في فشل مسعاه، ليُسرع من خطاه ويقف خلف بقية زملائه وهو يسترق النظر لما يجري، في محاولة منه للحاق بما خلّفه من معلومات. كان الطبيب يقف في مواجهة إحدى طاولات المعمل ممسكًا بقلمه، يمرره نحو إحدى الحالات من أمامه، ليتقزز الشاب على الفور مما قد رأته سارقة عينه، فقد كانت الطاولة تبدو كمشرحة للضفادع، تتراص فوقها العديد منها بشكل عرضي، منها من كان فاقدًا نصفه السُفلي، وآخرون شُقت بطونهم، لتبرُز أمعاؤهم خارجها... بينما تناثرت بعض من الأدوات الطبية على الطاولة دون ترتيب لها.

استرق الشاب السمع إلى حديث الطبيب وهو يشير بقلمه نحو الأعضاء الداخلية لإحدى الضفادع المُثبته بالطاولة، والتي كانت لا زالت تنبض بالحياة. تجلت ملامح الأسى على وجه الشاب وهو يطيل النظر إلى أحشاء ذلك المسكين، وقد تباعد غطاء صدره لتنكشف أعضاؤه الداخلية، بينما لا زال يمتلك روحه المسكينة بين ثناياها حتى الآن. حينها تملَّك الحُزن من الشاب، لدرجة أغفلته عن ملاحظة توقف المحاضر عن الحديث للمرة الأولى منذ مجيئه.

كان العالِم (لويجي) قبل ذلك يُكمل ما كان يحدثهم به، ليتوقف عن الحديث بغتة، وهو ينظر إلى الأدوات الطبية المبعثرة من أمامه واللازمة لإكمال شرحه، عبث بنظره لثوانٍ في الطاولة بحثًا عن ضالته المفقودة، حتى عجز في النهاية عن إيجادها، فأزفر في حنق موجهًا الحديث لذلك الشاب الواقف من خلفه دون أن يلتفت له.

- "سيد (ستيف) ...".

قاطع نداء (لويجي) حينئذٍ شرود أفكار الشاب على الفور، ليتقدم خطوة للأمام تجاه الرجل الذي أكمل الحديث:

- "فلتجعل لنفسك فائدة وتأتي إلينا بالمشرط من الطاولة الأخرى".

أومأ الشاب سريعًا برأسه ليُعجل الخطى نحو طاولة تبعد بخطوات قليلة من خلفهم، وقف يتلفت النظر في توتر بالغ إلى الأدوات المبعثرة فوقها، خمن النظر نحو إحدى الأدوات المستندة على بعض الدوائر الكهربية لجهاز ضخم يقبع بجوارها ليلتقطها بيده.

ثم عاد سريعًا لينخرط وسط بقية زملائه حتى جاور موضع الطبيب عن يمينه، وهو يطيل يده نحوه ممسكًا بالأداة الحديدية. التفت الطبيب نحوه حينها وهو يحدق في تلك الأداة دون أن ينبس بكلمة، ليزيد من قلق الشاب وتسمره في موضعه، فيثير ذلك ضحكات خافتة لبقية الزملاء من حوله، لينظر نحوهم في توتر دون أن يعلم سبب سخريتهم.

رفع (لويجي) بصره نحو الشاب وقد تجهم وجهه معلنًا ثورته القادمة؛ لتأتي أولى كلماته الناهرة للمسكين من جانبه بعصبية بالغة.

- "إن كنت لا تستطيع التفرقة بين طاولات المعمل الطبي وبين طاولات المحاضرات الأخرى، فربما عليّ أن أُثبّت جسدك بجانب تلك الضفادع، وأشرح لبقية زملائك الفرق بين عقلك الغبي وبين عقول تلك المخلوقات.. فيبدو أن عقلك الصغير لا يختلف عنهم كثيرًا".

أصاب التوتر البالغ الشاب؛ لتعجز حنجرته عن العمل، وابتلاع لعابه

الناتج عن توتره لما آل إليه من موقف حرج أمام زملائه، ليقف في جمود دون قدرة عن الحديث أو فهم ما عليه فعله تاليًا.

ازداد احتقان وجه الطبيب الغاضب وهو يرفع يده جانبًا مشيرًا إلى طاولة أخرى تسكن على مقربة من موضعهم، بينما لا زال الشاب ينظر نحوه في بلاهة؛ لينقض الطبيب بحديثه بغتة بنبرة أشبه بالصياح:

- "فلتأت إليّ بالمشرط الطبي في الحال..".

تطايرت الكلمات في وجه الشاب لتصيبه بالفزع، فتهوي الأداة الحديدية من يده على الفور، وتسكن فوق طرف إحدى الضفادع المفتقدة لنصفها العلوي.

انصرف شاغل الطبيب حينئذٍ لما حدث من أمر غير مفهوم كليًا بالنسبة له، فما لبثت أن سقطت الأداة الحديدية ولامست العصب المكشوف من قائمتيّ الضفدع الخلفيتين، حتى أخذت قائمتيه في الانتفاض مرات عدة، أدت لسقوطه من فوق الطاولة ليسكن الأرض، فتخبو بعد ذلك اندفاعات قائمتيه رويدًا، التي ما لبثت وأن تلاشت سريعًا ليُعاود النصف السُفلي للضفدع سكون الموت الذي كان عليه منذ لحظات قليلة.

عَلَت همهمة الطلبة المدهوشين أرجاء الغرفة ليجزع أحدهم ويرتطم غاشمًا بالطاولة، فتهوي من فوقها بعض الأدوات الطبية مُصدرة رنينًا صاخبًا، تلاه سقوط أحد الضفادع النافقة هي الأخرى على الأرض، لتصرخ إحدى الفتيات وتتراجع سريعًا مبتعدةً عنه،

وهي تخشى أن تدب به الحياة هو الآخر. لم ينشغل الطبيب لصراخها، وقد جثى على الأرض وهو يُمعن النظر في حيرة من أمره للنصف السفلي للضفدع، الذي عادت إليه الحياة منذ قليل دون أن يُعلم لذلك من سبب.

تملَّك الفزع حينها من عقل الشاب المُذنب بحماقته، فحاول إنقاذ آخر ما تبقى من مصيره كطالب في سنواته الأخيرة، لينكفئ هو الآخر على الأرض سريعًا، ويجاور الطبيب محاولًا الاعتذار عما تسبب به من أضرار، وقبل أن تكمل شفتاه تبرير ما بدر منه، بُترت الكلمات في حلقه فور أن رفع الطبيب يده اليمنى؛ ليكتم بها فم الشاب ويُلزمه على التوقف عن الحديث، وقد انصب تركيزه نحو الحالة التي أمامه دون أن يزوغ بصره عنها.

فتخرج أولى كلماته بعد تلك الحادثة إلى الشاب، لتُعلن عن أهم استفسار بات لديه، موجهًا حديثه للأخير:

- "سيد (ستيف).. أريدك أن تقُصّ عليَّ ما فعلته بالتحديد، منذ أن تسللت للغرفة وحتى الآن".(1)

* * *

---

(1) يُعد العالِم (لويجي جالفاني/Luigi Galvani) مُكتشف ظاهرة تأثر العضلات والجهاز العصبي بالكهرباء، التي أدت حادثة عرضية ناتجة عن تلامس أداة حديدية متأثرة بالطاقة الكهربائية لعصب ضفدع نافق إلى هذا الاكتشاف العلمي.

المرجع: المقال الخاص بالجريدة العلمية "History Today" للكاتب (Masthew Lynos).

ما قبل المُذكرات

في مساء السادس من ديسمبر عام 1802م، أطل القمر بدرًا في سماء لندن، يكاد يُضيء الليل فيفقده هيبته ويُذهب عنه حِلكة ظُلمته. عكست مياه بحيرة (قنال بادينجتون/ Paddington Canal) الراكدة، القمر في أبهى صورة تجلى بها منذ وقت بعيد، والذي لم يعُكر صفو انعكاسه سوى توترات سطح المياه إثر تحرك قدمي رجل بها، تغوص بالأرض من أسفله للخروج منها.

توقف الرجل بغتةً فور سماعه لصوت فقاعات من الهواء تنبعث على السطح من ورائه، ليسترق السمع نحوها دون أن يلتفت خلفه، فلم تمر ثوان معدودة حتى عاد السكون للبحيرة مرة أخرى، فأكمل خُطاه المُتثاقلة حتى تمكن من الخروج للبر، ليجلس بجسده المُبتل على الأرض، ويحتضن ركبتاه مُطيلًا النظر نحو مياه القنال بفم مُطبقٍ ونظرات شاردة.

استمر الحال لوقت طويل دون أن يتسكع أحد في الجوار، في هذا الوقت المتأخر من الليل؛ ليمر من جواره.

لم يكن البدر المُضيء في سماء ذلك الليل كفيلًا بإزاحة نظرات الرجل عن مياه القنال لوهلة واحدة، ولكنه كان كفيلًا بأن يتأمله الشرطي (دوين/ Dwayne) طيلة فترة دوامه في تلك الليلة، فعلى الرغم من حماسه المُفرط لخوض أولى أيام عمله في سلك الشرطة، إلا أن مرور ذلك الليل كان بالنسبة له رتيبًا، يخلو من أي حدث يسترعي الانتباه على عكس ما ظن به الحال. ظل يتسكع

على ضفاف القنال يُطالع بعينيه السماء كل بضعة ثوانٍ، حتى لاح له جلوس الرجل الشارد ببضعة أمتار من أمامه.

تحرك بخُطى ثابتة تجاهه والفضول يُداعب عقله، متسائلًا عما يفعله الرجل هنا وحيدًا في هذا الوقت من الليل، وما أن قارب موضع الأخير حتى تأمل حالة الجمود التي تحيط به. نظر مليًا للرجل الهادئ في جلسته، العاقد النظر من أمامه دون الالتفات إليه.. للحظات لم يفهم الشرطي أمر ذلك الرجل، ليزداد الفضول به ويرتمي ببصره إلى موضع نظرات الأخير نحو مياه القنال.

كان ضوء القمر بهيًا في طَلته، والسماء تحتضنه في كبدِها، لينعكس ضوءُه على سطح المياه وتتضح حقيقة الأمر، فعلى مقربة من موضعهما تواجدت جثتان تطفوان على سطح المياه، منكفئتا الوجه تجاه القاع المُظلم لتلك البحيرة، تترنح أجسادهما مع ثنايات أمواج المياه في سكون وسلام أبدي.

ارتعدت أوصال الشرطي فور أن أدرك من الأمر هوله، ليُخرِج بيده المرتجفة "صِفارة العون" من جيب معطفه، وما أن لامست شفتاه حتى علا صراخها دون توقف لتُعلن عن تلك الجريمة الشنعاء.

أزاح بصـره عن الجثتين بعد ذلك؛ ليلزمهما بموضع الرجل الجالس في جمود من أمامه دون أن يتحرك قيد أنمُلة أو يهم بالهرب، ليجذب الشرطي هراوته من عروة عِتاده، وترتعش يده وهو يعليها في الهواء

متمهلًا في قراره القادم، ليحسم الأمر بعد أن دام التردد للحظات في نفسِه، ويهوي بها على مؤخرة رأس الرجل بقوة غاشمة، فيترنح الأخير ليسقط جانبًا مُغشيًا عليه، وتنضح رأسه بدمائها.

نظر الشرطي إلى الرجل المُمدد على الأرض والفزع يعتريه، ثم أخذ من الشهيق مليًا؛ ليملأ الهواء صدره ويعاود الصَفير بكل ما أوتي من عزم، وهو يتلفت من حوله في أرجاء المكان بعقلٍ يوشك أن يُجن من تساؤلاته.. ما الذي قد حدث هنا؟.. ولماذا تتأخر الشرطة في الظهور في هذا الوقت المتأخر من الليل؟.[2]

* * *

الفصل الثاني

(منزل عائلة جالفاني)

انهمرت الأمطار الغزيرة فوق رأس الشاب وهو يقف خارج جامعته، احتمى بحقيبته فوق رأسه بنفسٍ متأففة من طول انتظاره لإتيان العربة الخاصة به لاصطحابه للمنزل، كان اليوم هو آخر الأيام في سنة تخرجه، فمنذ قليل كان يقف بصحبه رفاقه في سعادة لتوديع هذا الصرح الكبير، الذي أمضوا فيه سنوات دراستهم، مع وعود بألا تنقطع الصلة ببعضهم البعض آملين بأن تدوم صداقتهم للأبد، فابتسم بعد ذلك ساخرًا لوقوفه وحيدًا فور هطول المطر، وقد لاذ أصدقاؤه بالفرار إثرها بعد دقائق من وعدهم هذا.

مرّ وقت ليس بالقليل من وقوفه وحيدًا، حتى لاح له صوت صهيل أحد الجياد التي تصطحب العربة من ورائها، لتهدأ عجلاتها وتتوقف بجواره، فيهمُ بفتح بابها والإسراع في الدخول. اندفع (جيوفاني/ Giovani) للداخل؛ ليُلقي بالحقيبة جانبًا في انزعاج، وهو ينفض الماء عن ملابسه المُبتلة والتي فشلت الحقيبة في حمايتها من المياه، لتتحرك العربة قاصدة وجهتها، فجلس يتأمل من زجاج العربة بوابة جامعته مودعًا إياها، ويلتفت بعد ذلك إلى الرجلين الجالسين في مواجهته.. كان أحدهما يمسك بالصحيفة اليومية يُطالعها في صمت، بينما جلس الآخر عن جانبه يشاهد هطول الأمطار من النافذة الأخرى من جواره.

أمعن الشاب النظر في المقال وعنوانه الكبير الذي احتل الصفحة

المقابلة لوجهه للحظات.. "الكهرباء سر الحياة.. اكتشاف طامح أم جنون".

كان ذلك المقال يتحدث عن اكتشاف العالِم (لويجي) للقدرة على إحياء العضلات والناقلات العصبية لدى الحيوانات النافقة باستخدام التيار الكهربائي، طارحًا في نهايته سؤالًا بالغ الأهمية.. هل سيقتصر اكتشاف العالِم وتجاربه على تلك الحيوانات النافقة، أم أنه سوف يسعى لما هو أبعد من ذلك؟.

ابتسم في قرارة نفسه، وهو يتذكر ذلك الجدل الذي صاحبه خلال أشهر تخرُجه في خلال عامه الأخير، حول قدرة عمه على إنجاح تلك الثورة العلمية المزعومة، ليُلقي بأولى كلماته إلى الرجل الممسك بالجريدة من أمامه:

- "المزيد من الأخبار المثيرة للجدل عنك؟".

طوى العالِم (لويجي) الصحيفة لينظر إلى ابن أخيه من خلال نظّارته الطبية الدقيقة، فتُداعب الابتسامة الساخرة لحيته التي شابها الكِبر، ليجيبه ضاحكًا:

- "لازال الوقت باكرًا على إثارة الجدل الحقيقي".

ضحك الرجل الجالس من جانبه، نحو (جيوفاني) ليحدثه هو الآخر:

- "لا تقل لي أيها الطبيب أن ذلك الجدل لم يثر إعجاب الفتيات من حولك في الجامعة".

ابتسم (جيوفاني) إلى السيد (هنري جريفن/Henry Griffin) بحُمرة خجلٍ لم يستطع إخفاءها، فلطالما داعبه ذلك الرجل بمزاحه الساخر، والذي لا زال لم يعتد عليه في الفترة القصيرة التي تعرف عليه بها، فقد لازم السيد (هنري) مُصاحبة عمه في الأشهر القليلة الماضية منذ الاكتشاف الأخير، يعاونه في مشروعه الخاص بتصنيع جهاز كهربي من صنعه، يستعين به في إجراء التجارب العلمية الخاصة به.

ظل الثلاثة ملازمي الصمت طيلة ما تبقى من الطريق، حتى اقتربت العربة حينها من الوصول إلى الشارع المؤدي لمنزلهم، لينظر (جيوفاني) من زجاج النافذة إلى ذلك المشهد الذي قد اعتاده في الآونة الأخيرة.. كان يقف على مقدمة الشارع عددٌ لا بأس به من حرس الشرطة، ومن خلفهم يتواجد حاجز أمني، يمنع دخول من لا شأن له إلى داخل ذلك الشارع وإزعاج أمن وسلامة قاطنيه، بينما كان يقف على الرصيف المواجه لهم، حشد من الجمع الغاضب، ترفع أيديهم اللوحات الضخمة المُعارضة لمسعى ذلك العالِم، يطيحون بأيديهم في توعد بينما تعلو أفواههم بصيحات غاضبة علَت صوت هطول المطر من فوق رؤوسهم.

كانت الأمطار ذلك اليوم كفيلة بعدول نسبة كبيرة من الحشد المُعارض عن الإتيان، ولكن من تبقى منهم لا يزال كافيًا بإثارة الرهبة في نفس ذلك الشاب، فأرجع رأسه ليستند للخلف لثوانٍ محاولًا إغماض عينيه وإسكات التوتر بداخله، لتمضي لحظات ويجزع على الفور إثر إلقاء ثمرة فاسدة تجاه العربة، فتصطدم بالنافذة من جانبه

وتلفُظ بعصارتها لتنساب على زجاجها.

ألقى (جيوفاني) ببصره للخارج ليتطلع إلى ذلك الحشد، الذي بدأت الشرطة في محاولة السيطرة عليهم وقد زادت ثورتهم فور تداركهم لوصول عربة تلك العائلة، يجاهدون منع أيديهم من أن تطولهم لتبطش بهم، بينما اندفعت بعض الرؤوس من وسط أكتاف الحرس موجهةً السباب واللعنات بأقصى قدرة تستطيع الحناجر إيصالها، ولكن من وسط تلك الأفواه الغاضبة، لاحظ (جيوفاني) وقوف شخص من بينهم يلزم الصمت التام.

أمعن (جيوفاني) النظر هذا الوقت نحو ذلك الشخص الغامض الذي كان يقف في جمود متوسطًا الحشد الغاضب يراقب العربة في هدوء، ليدقق الطبيب الشاب النظر في تلك الندبة البارزة التي توسطت إحدى وجنتيّ الرجل، وقد استمر في مراقبتهم دون أن يسترعي تراقص حبات المطر فوق صلعته والتي انسابت على وجهه، وتقطّرت من أسفل فمه الذي لا يعرف له الحديث من طريق.

عجز (جيوفاني) طيلة تحرك العربة عن إفلات بصره عنه وعن نظراته الثاقبة نحوهم، والتي لاحقتهم حتى بعد تخطيهم للحاجز الأمني، ودلوفهم للشارع متوجهين إلى منزلهم في النهاية.

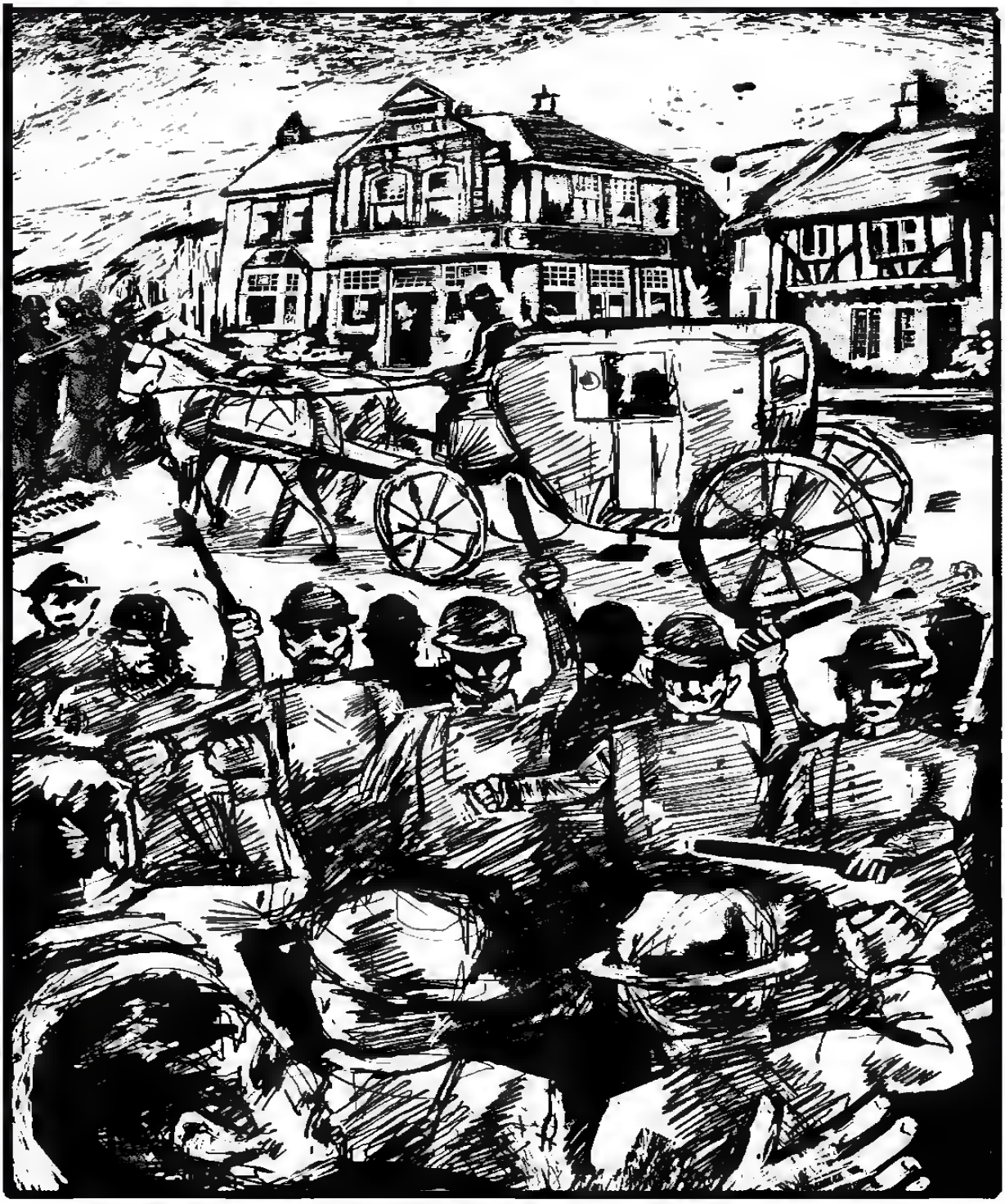

ترجل الرفاق الثلاثة من العربة ليسبقهم (جيوفاني) بخُطى مسرعة نحو الباب، ويطرقه بيدٍ متلهفة، فسرعان ما فتحت الخادمة الباب؛ ليمر من جانبها سريعًا غير عابئ باتساخ حذائه بالطمي. الأمر

الذي أثار الحنق على وجه الخادمة وهي تراقبه يهرع إلى رفيقه الذي كان ينتظر مجيئه منذ أن غادر بالصباح، ألقى بأمتعته أرضًا ليركض نحو كلبه (هيكتور)، بينما كان ذيل الأخير يتطاير في الهواء سعادة لمجيء صاحبه، لينكفئ (جيوفاني) ويحتضنه في سعادةٍ بالغة.

تراقص جسد الكلب من حوله ليغرق وجهه بلعقات لسانه اللزج، الأمر الذي جعل الشاب عاجزًا على احتضانه من وسط رقصاته الفرِحة، ليهمهم ضاحكًا:

- "(هيكتور).. لكم أفتقدك يا صديقي".

تحدث السيد (هنري) من ورائه، وهو يُعطي معطفه المُبتل للخادمة موجهًا له حديثه الساخر كعادته:

- "لطالما تعجبت من تسميتك لهذا الكلب بذلك الاسم الغريب".

التفت (جيوفاني) برأسه نحوه، وهو يربت على رأس صديقه:

- "لقد أطلقت عليه ذلك الاسم تيمنًا بأحد المصارعين الإغريق المشهورين".

ثم عاد لينظر إلى (هيكتور) الذي كُسيَ جسده بالوبر الأبيض، ليضفى ملامح البراءة عليه، مُكملًا حديثه للرجل:

- "لا تدع ملامح (هيكتور) الهادئة تلك تخدعك.. فإنه مقاتل شرس لا يُستهان به على الإطلاق".

ثم قبض بيديه على وجه كلبه محاولًا إغاظته، فحاول الكلب عبثًا الإفلات من قبضتا يدي صاحبه وإحكام فكه على إحداهما، بينما عاد

ليعبث بذيله في الهواء في سعادة، وهو يكمل مناكفته له.

- "(هيكتور).."

التفت الكلب نحو السيدة العجوز فور مناداتها له، وهي تترجل من سلالم الطابق الثاني للمنزل المؤدية نحوهم، لتُكمل السيدة حديثها، بينما أخذت تطرق بأصابعها في الهواء:

- "فلتدع بُني المُتعب ليرتاح قليلًا".

ترك الكلب صاحبه ليسرع نحو السيدة وهي تهم بالنزول، ليلتف من حولها مرات عدة وقد تدلى لسانه لاهثًا في سعادة، فأكملت العجوز خطاها نحو ولدها الذي سارع في النهوض من جثوته والتوجه إليها، اندفع نحوها لاحتضانها، وقد أدى اندفاعه لرطمة بسيطة بجسدها الواهن لتتراجع للوراء قليلًا قبل أن تتماسك في وقفتها، فتغمض عينيها في سعادة وتحتضنه هي الأخرى، بينما داعبت بيديها خصلات شعره.

حينها تحدثت إليها الخادمة وهي تهِم نحوها في قلق:

- "سيدتي (هيلين/ Helen).. ما الذي أخرجك من فراشك؟".

أجابتها السيدة المُتعبة وهي تأبى ترك حضن ولدها:

- "لا تقصي عليَّ بقلقك هذا، فلن أفوت تلك اللحظة مهما حدث".

باعدت الأم ولدها من كنفها في حنان بعد ذلك، لتقبض على يده وتنظر تجاه خادمتها مُكملةً:

- "هل انتهيت من إعداد الطعام؟".

أومأت الخادمة برأسها، لتلتفت إلى السيدين بعد ذلك وتسألهما عن رغبتهما في إعداد الغداء لهما، ليُخرِج العالِم (لويجي) غليونه من جيبه ليشعله، ثم وضعه في فمه ليتلذذ بدخانه قبل أن يجيبها:

- "ليس الآن.. فلا زال لدينا الكثير للقيام به".

ثم همّ بالتوجه إلى إحدى الغرف الجانبية المجاورة لباب المنزل، وكانت المعمل الخاص به والمنكب دومًا بداخله، وما أن أمسك بقبضة بابه ليفتحه.. حتى اندفعت خارجًا بعض الضفادع تتقافز هربًا.

تراجع (لويجي) في انزعاج مما رأه، وهو يسب ويلعن تلك الضفادع التي تمكنت من الهروب من محبسها لتلهو في معمله قبل أن تُلاقي مصيرها الأخير، حاول السيد (هنري) الانكفاء وملاحقة إحداها، والتي كانت تلوذ بالفرار كلما قاربت يداه الإمساك بها، بينما اقترب الكلب من باب الغرفة وقد أمال رأسه جانبًا وهو ينظر نحو إحدى الضفادع التي تتقافز هربًا، فلم تمر ثوانٍ حتى أخذ يُحاكي قفزاتها من خلفها، بينما تدلى لسانه في سعادة للهو معها.

نظر (لويجي) إلى الفوضى التي حلّت بالمكان ليصيح في غضب مناديًا الخادمة، فتهم بالإسراع إليهما، لتنكفئ هي الأخرى أرضًا وهي تلعن حظها العسر الذي اضطرها للمساعدة في الإمساك بتلك الضفادع المارقة.

انبعثت الفوضى بالبهو فبات المشهد عبثيا للغاية، ليعود

(جيوفاني) ليستند برأسه على صدر والدته وهما يضحكان لما يريانه من لهو بالمكان، فللمرة الأولى تأتي البهجة والمُزاح من باب غرفة معمل ذلك العالِم، فلم يكن يعرف ذلك المعمل في الآونة الأخيرة سوى الموت لمن يقطنه بالداخل.

* * *

مُذكرات مجهول

مذكرتي العزيزة.. لطالما أسعدني اللجوء إليك بعد عناء يوم طويل، ربما لأنك بمثابة الزوجة التي لم أحظ بها يومًا، أعود بعد انتهاء عملي المُرهق لأرتمي في أحضان أوراقك وأخط بك ما بي من هموم وأوجاع، أسعد وأنا أحدثك عما يجول بخاطري دون أن تُلقي عَليّ بأحكامك، لطالما سعدت بفصاحة لساني التي أتعجب منها في بعض الأحيان وأنا برفقتك، أبتسم حين أتذكر أنني كنت أطمح لأكون كاتبًا يومًا ما، ولكن لم تكن ثقافتي تلك لتأتي بقوت يومي على أي حال.

فها أنا أكافح في سلك الشرطة متمسكًا براتبها الزهيد طامحًا لشأن قد لا يكون من نصيبي يومًا، ولكنني اليوم أكثر سعادة عن سابقيه، فانتقالي من وظيفتي في الشرطة العامة لأصبح من حراس سجن (سانت ريمون/ Saint Remon) قد أسفر عن زيادة في راتبي الزهيد، ومن يعلم ما يخفيه القدر عني في الأيام المُقبلة، فربما يلُقي عملي الجديد ببعض الإثارة في تلك الحياة الرتيبة التي لم تفارقني يومًا.

اليوم كان ثاني أيامي في وظيفتي الجديدة داخل ذلك الحصن الحجري، لقد تم تعييني على حِراسة زنزانة ما قبل المُحاكمة، تلك الزنزانة التي تستضيف النزلاء المستجدين والذين يظلون بها حتى تبِتَّ المحكمة في أمرهم، وتُلقي بهم في بئر محبسهم الأخير، واليوم كنت على موعد مع تلقي زُمرة من الوافدين الجُدد، كان

من بينهم شخص تردد اسمه في الصحف مؤخرًا وتناقلت الألسنة الحديث عن جريمته الشنعاء، ذلك الرجل الذي قتل زوجته وابنته بدم بارد مُغرقًا إياهما في المياه المتجمدة للقنال منذ أيام سابقة.

وقفت أمام زنزانتي مُمسكًا بالأوراق في يدي، أُتابع أسماء الوافدين في همة من أمري، لم يكن من بينهم من أتُهم بجرائم قتل سوى ذلك السجين. كانوا مجرد حِفنة من اللصوص يصطفون أمامي بأعين لا تبالي غالبيتها بعاقبة أفعالهم. لم أعتد التعامل عن قرب مع المجرمين من قبل، لأصطنع من الجمود والبأس قناعًا لوجهي وهم يمرون بجواري دافعًا إياهم للداخل في قسوة من أمري.

(ج. فوستر/G.Foster) كان السجين الأخير.. رفعت رأسي المنشغلة في الأوراق نحو ذلك القاتل لأتأمله، كان يقف أمامي شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لا تُنبئ ضآلة بِنيته عما تضمُره نفسه من قسوة، ولكن على الرغم من حداثة خبرتي في عملي الجديد، أدركت أمرًا في نفسي فور رؤيته، كان ذلك الشاب لم يعهد حياة السجون من قبل، علمت ذلك فور أن شاهدت رهبة رؤياه للقضبان الصدئة للزنزانة، ولكنني لم أعبأ بالأمر.. فشأنه شأن من سبقوه من السُجناء، فدفعت به للداخل وأُغلقت باب الزنزانة من خلفه؛ لأنتصب في وقفتي منتظرًا قدوم آمر السجن.

القس (بِرهام/Perham).. لم أحظَ بشرف رؤيته من قبل بعد، ولكن داخل تلك الجدران كانت تتردد سمعة مسؤليه على ألسنة من يحرسونه، كان القس (بِرهام) قائمًا على إمارة ذلك السجن

منذ سنوات طوال، والمبعوث من الكاتدرائية الكاثوليكية لإحكام سيطرة الكنيسة على ذلك المكان؛ رجل نافذ السلطة يدير السجن بحزم لا يعرف اللين له طريقًا.

دقائق مرت حتى تعالت خُطاه من الطرقة المواجِهه لي، لأقف على أُهبة الاستعداد لملاقاته، فيأتي بعد ذلك من أمامي متوشِحًا بسواد زيه الكنسّي المهيب، وبصحبته أحد الحراس مُمسكًا بأوراق في يده. وقف بجواري ناظرًا من خلف القضبان نحو السجناء، بوجه يعلوه الجمود وعينين تُطلقان الأحكام المُسبقة عليهم، فوكزني الحارس الآخر حينها لأفيق من تأملي لآمر السجن، وأُسارع بانتشال مفاتيح الزنزانة من جيبي لأفتح لهما الباب على الفور فيهمَّا بالدخول، وأتحرك للداخل أنا الآخر مُتبعًا إياهما.

دفعة قوية أتت من حذاء الحارس لجانب أحد السجناء، فانتفض الجميع من مجلسهم للوقوف بنفس ترهب اللقاء، ليعقد القس يديه خلف ظهره، ويأتي بحديث مُطوّل نحوهم، ما بين وعيد بعقاب جمٍّ في حالة مخالفة الأوامر، وما بين وعود سخية في حال إحسانهم التصرف، ليتوقف عن الحديث لثوانٍ بعد ذلك، فيقوم الحارس بتوزيع الأوراق عليهم. الجميع قد تلقف تلك الأوراق، وتهافتت نظراتهم نحو ما تحتويه، الجميع عدا ذلك السجين.. المدعو (فوستر).

تعمد الحارس وقتها.. حِرمان ذلك السجين من تلك الأوراق دون أن أعلم سببًا لذلك، ليقوم القس بالتحرك ذهابًا وإيابًا من جانبهم وهو يُكمل حديثه حول الأنشطة التي تحتويها تلك الأوراق بين

أيديهم، أنشطة دينية تسفر المساهمة بها عن تخفيف صِعاب الفترة التي يقضونها هنا، ما بين فُسحة إضافية ينعم بها السجين خارج محبِسه، وما بين وفرة في الطعام تهنأ بها البطون، مُتوجين بوعدٍ بإعادة النظر في شأنهم مجددًا، في حالة إن أتت مشاركتهم بثمارها.

وقف الحارس حينها يدوِّن أسماء الوجوه المندفعة نحوه للمشاركة في تلك الأنشطة، ليتحرك (فوستر) من بينهم ويلُقي باسمه نحوه، فلا يلقى لندائه من مُصغٍ، متجاهلًا إياه ليكمل تدوين أسماء المشاركين الآخرين دونه، وبعد أن انتهى من مهمته وقف بجانب آمر السجن في انتظار أوامره التالية، فتحرك القس بخُطى هادئة متبعًا إياه الحارس إلى الخارج، لأعاود إقفال باب المحبس وأتموضع في مكان حراستي موليًا ظهري للزنزانة.. دقائق مرت من السكون على المكان، لأسترق السمع بعد ذلك نحو خُطى حثيثة أتت من خلفي.

دفع السجين (فوستر) حينها بجبينه من بين القضبان، ليهمَّ بحديثه نحوي.. سائلًا إياي عن سبب حرمانه من المشاركة التي نالها رفاقه، لم أهتم للالتفات نحوه أو الإجابة عن تساؤله، كان السبب هو معرفتي السابقة بالشائعات التي طالت سمعة ذلك القس من غِلظة أفعاله نحو من يزهقون أرواح العباد، ومن أكون لكي أُشكك في أفعال آمر ذلك السجن، فلربما لا يستحق القتلة نظرة شفقة أو رحمة تجاههم بالفعل، فمصيرهم هو الجحيم عما قد جنت أيديهم في نهاية الأمر.

أعاد السجين على مسامعي سؤاله مرارًا وتكرارًا، حتى ملَّ لسانه وجف حلقه دون أن أُجيب له مطلبه، موليًا ظهري له ليعوي بحديثه دون شاغل لي، كنت مستمرًا في اصطناع الجمود كقناع لي، ليتزحزح ذلك القناع عن وجهي فور سماعي لآخر حديث أباح به فمه المُرهق... "أنا لم أقتل أحدًا".(1)

---

(1) كانت الكاتدرائية الكاثوليكية في القرن التاسع عشر ميلاديًا تقوم بتعيين القساوسة في وظيفة القائمين بالأمر والمسئولين عن السجون.

المرجع: الوثائق التاريخية الخاصة بـ " **BBC Knowledge** ".

الفصل الثالث

(رحيل الأتقياء)

توالت الأشهر على منزل آل (جالفاني) الذي بات وحيدًا لا يؤنس وحدته طارق، فوسط مجتمع كاثوليكي متدين، كان الجميع يتوجس زيارتهم ويُطلقون عليهم الأحكام المُسبقة، بينما تتناقل الألسنة الشائعات حول ما يحدث داخل ذلك المنزل، والمساعي الشيطانية التي تستتر تحت مُسمى العِلم، وقد باتوا يخشون ما هو قادم من أفعال لتلك العائلة.

وفي صباح أحد الأيام تمدد (هيكتور) على أرضية البهو في نعاس، ليلتقط سمعه بعد ذلك أمرًا ما، فإذا به يهب من جثوته وتنتصب أُذناه وهو ينظر صوب باب المنزل، وقد تخلى عن هدوئه المعتاد ليقف متأهبًا ويكشر عن أنيابه، فيعلو نباحه بعد ذلك فور أن طرق أحدهم الباب.

أتت الخادمة مسرعة من الداخل لتمر بجوار الكلب متوجهة إلى الباب، ملبية نداء الغريب، وما أن واربت مصرع الباب حتى وجدت فتى صغيرًا يقف أمامها، تلطخت ملابسه بحُمرة الدم، يُجاهد في

حمل صندوق كبير الحجم بين يديه. تسمرت الخادمة وهي تنظر إلى ذلك الصندوق الذي سالت الدماء من باطنه، وهي لا تقوى على الحديث أو الاستفسار عما يحتويه، فمدَّ الفتى يديه الواهنتين من حمل الصندوق نحوها.

ليستمر وقوفها بنفسٍ لا تقوى على المساس بما يحمله، فتمر لحظات من الصمت المُطبق، حتى أتت خطى السيد (هنري) من ورائها ليزيح وقوفها جانبًا ويمسك بالصندوق ويهم بالعودة للداخل مرة أخرى، التفتت الخادمة لتنظر نحوه لوهلة، ثم عادت لتتأمل الشاب الصغير وهو يهم بالمغادرة معتليًا دراجته في عجالة للرحيل، فتتنهد في حسرة وهي تعلم يقينًا بأن تلك الدماء المُهدرة لن تكون الأخيرة التي تستقبلها تلك العائلة.

تحرك السيد (هنري) بخُطى مسرعة حاملًا الصندوق متوجهًا إلى باب المعمل، كاد أن يتعثر في حقيبتين ملقاتين جانبًا، لولا أن تدارك أمره سريعًا، ليزفر في حنق ويطرق الباب بقدمه، بينما انشغل ذهنه بالدماء التي لطخت يديه من الصندوق، ليفتح (جيوفاني) الباب ويهم الرجل بالدخول، فيُسارع بوضع الصندوق المُثقل فوق طاولة المعمل.

كان العالِم (لويجي) يقف جانبًا مُنكبًا في مطالعة كُتيّب خاص به، وقد تحرك (جيوفاني) نحو الطاولة ليعاون السيد (هنري) فيما هو قادم، فتح الاثنان الصندوق ليُحكِما إمساك ما بداخله ويجاهِدا في إخراجه.. فيُخرِجا حينها رأس ثور بالغٍ حديث النحر، لتعلو الرأس الصندوق بينما تقطّرت الدماء اللزجة من شراييينها، فيسيل بعضها

على الأرض فور استقرار الرأس على الطاولة من أمامهما.

انفض شاغل العالِم (لويجي) عن مطالعة كُتيّبه ليتأمل الرأس المنحور الذي قد طلب في البارحة من أحد الجزارين الحصول عليه اليوم فور ذبحه، فتقدم نحوه بخُطى ثابتة، كانت بمثابة إشارة لبدء العمل المُتفق عليه، ليتحرك السيد (هنري) سريعًا نحو الجهاز الكهربائي الموضوع بجوار الطاولة ويشرع بالبدء في عمله، أمسك الطبيب الشاب بمنشار طبي من جواره ليرفعه في مواجهة وجهه، وهو ينظر للرأس من أمامه استعدادًا لبدء تجربتهم التالية.

توالت ارتجاجات الرأس المنحور من فوق الطاولة، في كل مرة يقوم بها (جيوفاني) بنشر الجزء الأعلى من العظم الجبهيّ للجمجمة، ينحر عظامها بمنشاره عاقدًا التركيز على عدم المساس بما يسكن أسفلها، وما أن لانت دفعات المنشار في يده، حتى أدرك وصوله لمبتغاه.. وقف حينها العالِم (لويجي) عاقدًا يديه خلف ظهره، يستنشق دخان غليونه في هدوء وهو يتابع تلك العملية الحذرة، ليترك الطبيب الشاب من يده المنشار الطبي ويرفع غطاء العظم الخارجي ليضعه جانبًا، ليتأمل فصيّ المخ اللذين برزا للأعلى.

توجه العالِم (لويجي) بنظرات صامتة إلى السيد (هنري) والذي تعبت يداه المُرهقة من كثرة إدارة القرص المولد للجُهد الكافي لشحن الدائرة الكهربائية، وقد باتت على أهبة الاستعداد للعمل، ليقوم (جيوفاني) بإمساك قُطبي الأسلاك المتضافرة من معدنّي النحاس والأولومنيوم، اللتين تعملان كموصل للتيار الكهربائي المُنبعث من الجهاز، وهو يمعن النظر نحو هذا العضو المُعقد لثوانٍ،

ثم مد يده للداخل ممسكًا بالقطبين، وأحكم اتصالهما بفصي المخ.

نظرة واحدة من عمه نحو الجهاز الكهربائي كانت بمثابة إشارة للشروع في إكمال الخطوة التالية، فأمسك السيد (هنري) بمقبس الجهاز وقام بإزاحته للأسفل، لتفيض الشحنات الكهربائية بالأسلاك وتسري على الفور بعقل ذلك الثور النافق.

دقائق قد مرت على بدء التجربة، صمتت بها الأفواه عن الحديث وهي تراقب سكون الموت الذي لازم الرأس من أمامهم، نظرات حذرة متفحصة علاها اليأس والإحباط، فلا أثر لإرسال المخ لأي إشارات حيوية إلى الخلايا العصبية له، وكأن هذا العضو قد فقد قدرته كليًا بعد فقدانه للحياة.. لم يستطع (جيوفاني) حينها صبرًا الوقوف في مكانه، فدفعه الحنق وفشل المسعى للالتفاف حول رأس الثور بعينين مترقبتين، ليتكئ للأسفل متفحصًا رأس الثور المُثقلة فوق الطاولة.

استقر حينها في مواجهته وهو يتمعن بذلك الرأس المُصاب بالجمود، أطال النظر بعينين ثاقبتين نحو عيني الثور التي تواريت جفونه وتدلى طرف لسانه للخارج دون بادرة تحرك، فأزفر حينها في يأس من أمره وقد أصابه الإحباط، ليعاود الانتصاب في وقفته وهو ينظر إلى عمه بوجهٍ يُعرب عن الفشل.

التفت (لويجي) عائدًا ليمسك بكُتيّبه، ويشرع في تدوين ملاحظاته عن التجربة ومقترحات تعديلاتها، وقد كان الفكر يعصف بعقله حينئذٍ، فكيف لرأس لم يُبلَ بالتحلل بعد، أن تُصاب

وظائفه الحيوية بالتلف الكُليّ وتفقد قدرتها على العمل، لربما كان عليه مراجعة حسابات التجربة أكثر من ذلك.. أطاح برأسه حينها الكثير من الفرضيات العلمية المطروحة، فمن المفترض أن التحفيز الكهربائي كافٍ بعودة إرسال المخ لإشاراته الطبيعية إلى الجهاز العصبي، لتقوم العضلات بتحقيق الحركة المطلوبة، أو ربما كان يحتاج هذا العقل الهائل إلى ضخ شحنات أقوى من تلك التي يولدها جهازه الكهربائي.

ازداد الحنق بداخله وقد تذكر الجهاز الكهربائي الذي قام غريمه العالِم (فولتا/ Volta) بتصنيعه وذاع صيته في الأجواء العلمية، انزعج حينما طرح عقله فرضية الاستعانة بجهاز ذلك العالِم الذي سعى في السابق للإطاحة بنظريته العلمية الأخيرة[3]، فسارع بكتابة تلك الملحوظة التي لم يرد يومًا أن يكتبها، ولم يرغب عقله في ترجيح استخدامها.

طرقٌ مهذبٌ أصاب حينئذٍ باب المعمل، فالتفت (جيوفاني) جانبًا ليجد الخادمة تفتح الباب وتقف عند عتبة الغرفة، فتترأى له حقيبتان تقبعان على مسافة قريبة من ورائها، فأدرك أنها قد عزمت في النهاية على قرارها بالرحيل عنهم، والذي طالما حدَّثت به والدته في السابق، ولم يكن يتوقع أن تقوى يومًا على تنفيذ ذلك القرار.

دلفت الخادمة بعد ذلك لداخل المعمل لترفض خُطاها التقدم أكثر من ذلك، تفحصت لثوانٍ بنفس أصابها الجزع رأس الثور النافق، لتقبض بيدها على الصليب المُعلق في رقبتها، فتهدأ أنفاسها اللاهثة من فرط الخوف بداخلها، أجبرت قدميها على المُضي قُدمًا نحوهم

ليتشتت بصرها فور مرورها بجوار إحدى الطاولات؛ صندوق زجاجي موضوع فوقها، يقبع بداخله ضفدع نافق يعلو باطنه نحو الأعلى.

تذكرت حينها إحدى الأيام الماضية، وقت أن أتت حين غرة لداخل المعمل أثناء إجراء إحدى تجاربهم، كان ذلك الصندوق مُحكم الغلق وقتئذٍ، يسكنه مجموعة من الضفادع التي حُرمت من الهواء لتلقى حتفها خنقًا في خدمة العِلم المزعوم، أغمضت عينيها في ألم وهي تتذكر قفزاتهم بينما تُصارع صدورهم نقص الهواء، ينقلبون على ظهورهم وتتشنج أطرافهم، بينما تجاهد أرواحهم المسكينة السكون، ولو لثوانٍ معدودة قبيل الفراق الذي لا عودة بعده.

كانت تلك البداية فقط نحو طموح تلك العائلة الذي لا ينتهي، ومنذ ذلك الحين بات معمل العالِم (لويجي) بالنسبة للخادمة مقبرة للموتى، مع وعد شيطاني بالعودة للحياة مجددًا، وهنا اختمرت بعقلها فكرة قرارٍ، لا بدّ من الإسراع في تنفيذه هربًا من هذا الجحيم الذي بات يُنافي ما تؤمن به.

أكلمت خُطاها بعد ذلك ممسكة بصليبها، حتى توقفت قدماها عن التقدم فور أن اعترضت خطواتها الدماء اللزجة التي سالت جانبًا من رأس الثور الموضوع فوق الطاولة، وكأنها كانت بمثابة الخط الفاصل بين معتقداتها وبين الدماء التي تُراق في سبيل مساعي العِلم، لتأخذ من الشهيق مليًا، وتبدأ بحديث لم تتوقع يومًا أن يتردد على لسانها.

- "لقد جئت لأودعكم.. فقد حان وقت رحيلي".

لم يكترث (لويجي) لحديثها، ليلتفت إلى رفيقه الآخر وينشغل

الاثنان في تفحص الجهاز الكهربائي، فيتقدم (جيوفاني) عابرًا الدماء ليقف بجانبها ويجيبها بنبرةٍ حزينة، بينما كانت عيناه لا تبارحان موضع حقائبها بالخارج:

- "هل لا زلت عاقدة العزم على مفارقتنا؟".

أشاحت الخادمة بوجهها عن الشاب، وهي بعينَين زائغتين لا تستقران على مشهد إلا وزادها رعبًا، من هول ما تراه ولا تفهمه، لتكمل حديثها:

- "لا شأن لي ببيتٍ مسعاه عصيان إرادة الرب سيدي الصغير".

ليجيبها الطبيب الشاب مُبررًا في استنكار مما حدثته:

- "إن مسعانا ليس له غاية سوى...".

التفتت إليه حينها لتنهره بنظراتها، مقاطعةً إياه:

- "إن مسعاكم يُغضب الرب.. فأنتم تسعون لمخالفة إرادته في شأن مخلوقاته.. فمن كُتب له الموت لا يجوز محاولة إحيائه من قِبل البشر، مهما كانت نواياهم".

ثم عادت للحديث بنبرة أكثر إصرارًا:

- "لقد عزمت على الرحيل.. صدقني لم أعد أحتمل التواجد بهذا المكان بعد الآن".

قاطعهما صوت (لويجي) الذي أتى بنبرة صارمة لا توحي بأنه قد استمع لأيٍ مما قالاه، ليتوجه بالحديث نحو ابن أخيه والسيد

(هنري):

- " فلتستعدا للتحرك، لقد أوشك الوقت على رحيلنا".

التفت (جيوفاني) نحو عمه فور حديثه غير المبالي بشأن الخادمة، والذي كان بمثابة نهاية لحديث الخادمة العبثي بالنسبة له، فكأنما العالِم أيضًا أصبح يتوق لمغادرتها، ليعاود الشاب النظر إليها مجددًا محاولًا إخفاء حزن مفارقتها، وقد أمسك بيدها في حنان قائلًا:

- "سوف تتحرك العربة في القريب لإيصالنا إلى الأكاديمية العلمية.. فلتأتِ معنا لاصطحابك إلى منزلك قبل ذهابنا".

ارتسمت حينها ابتسامة خافتة على شفتيها وهي تُمسك بيده هي الأخرى.

- "فلتأذن لي بوداع سيدتي قبل رحيلي".

توجهت الخادمة لخارج المعمل، لتتحرك بخُطى هادئة وهي تُشيع البصر في أرجاء المنزل، تتأمله بنظرات مودِعة أخيرة، تصاعدت خطاها درجات السلم المؤدي للأعلى ومعها علت ذكريات الماضي برأسها؛ تذكرت اليوم الذي أتت فيه إلى ذلك المنزل منذ سنوات يعجز العقل عن إحصائها.

تذكرت صدمة فُراق تلك العائلة لوالد (جيوفاني) حينما كان صغيرًا، وقد استرجع عقلها ذكرى الأيام التي عاونت بها (جيوفاني) على نشأته حينما كان صغيرًا، وقد ولدته أمه في سنٍ متأخرة، حتى صار الآن شابًا فتيًا.. كانت هي بمثابة أمٍ ثانية له، وأخت صُغرى

للسيدة التي تخدمها، لم يأتِ يومٌ وشعرت بأنها شخصٌ مؤجرٌ أو غريبٌ عن تلك العائلة، والآن باتت الغربة والوحشة لا يفارقا صدرها، وأصبح عليها الرحيل مودعةً عائلة تمنت يومًا أن يأتيها الموت كِبرًا بجوارهم.

لم يطل شرودها كثيرًا حتى وصلت إلى غرفة سيدتها لتدفع الباب برفق وتذهب نحو العجوز الراقدة في فراشها، تبادلتا النظرات الصامتة للحظات قليلة؛ لتجلس الخادمة بعد ذلك جانب الفراش، انحنت للأمام قليلًا نحو إحدى أدراج المكتب المُستند إلى الحائط، لتأتي ببضعة أقراصٍ من الدواء وتضعه على سطح المكتب، وهي تتوجه بالحديث إلى سيدتها مشيحة النظر عن وجهها.

- "لا تنسِ تناول الدواء في مواقيته.. لقد قمت بترتيب الجرعات...".

قاطع حديثها إمساك العجوز ليدها في وهن، لتلتزم الخادمة النظر في صمت نحو أنامل سيدتها الحنونة دون القدرة على النظر إلى عينيها، فتحدثها سيدتها بنبرةٍ مزقها مرار الفراق:

- "هل سترحلين عن المنزل، وتتركيني بمفردي؟".

انسابت الدموع على وجهٍ اعتراه الحزن، لتجيبها:

- "لكم تمنيت الموت بجوارك سيدتي.. بل بالأحرى تمنيت الموت قبلك؛ لتُحسني مثواي".

ثم أكملت بحديثٍ أصاب العجوز بالدهشة:

- "والآن أخشى أن يصبح موتي سبيلًا لإحدى التجارب في هذا المنزل".

تعجبت العجوز مما سمعته للتو، لتشرع في الحديث:

- "عما تتحدثين؟.. تلك التجارب التي يجريها شقيق زوجي، لا يطمح بها سوى التقدم العلمي للبشرية".

فأجابتها الخادمة سريعًا:

- "سيدتي.. أنتم مُقبلون بخُطى ثابتة نحو الجنون لا محالة".

ثم عزّمت بقبضتها على يد سيدتها مترجية إياها:

- "استحلفك بألا تدعي سيدي الصغير يتورط في تجارب عمه أكثر من ذلك.. فتلك المساعي من خطى الشيطان".

لتعود لتنهي حديثها في حزن:

- "يعِزّ عليّ فراقك سيدتي، ولكن لم يعد لي مكان في هذا المنزل بعد الآن".

عجز لسان العجوز عن الحديث بعد ذلك، لتباغتها الخادمة وتقوم بإفلات يدها والنهوض من جانبها لمُبارحة الغرفة.

تسارعت خُطى الخادمة فوق درجات السلم، وقد أبصرت باب المنزل مفتوحًا، بينما تقف العربة في واجهته منتظرة إياها، فتأتي مسرعة بحقائبها وتتحرك لملاقتهم بالخارج.

وضع سائق العربة الحقائب بجانبه، لتتلاقى عينا الخادمة بعيني

(جيوفاني) لثوانٍ، وهو برفقة الآخرين بالداخل، فتبتعد بنظرها بعيدًا عنه، وتصعد لتجاور السائق الجلوس، فيُلامس سرج السائق ظهر جواديه لتقوم العربة بالتحرك على الفور.. فينقضي وقت ليس بالقليل لتصل العربة بالخادمة لوجهتها، فتهم بالنزول ويضع السائق الحقائب على الأرض بجوارها، ثم عاد لاعتلاء العربة مجددًا للمغادرة.

وقفت الخادمة مودِعة بنظرها العربة المسرعة لثوانٍ معدودة حتى ابتعدت عن موضع رؤيتها، لم تتمالك عيناها حينها منع الدمع المنساب منها، وقد تملَّك الحزن من قلبها على مفارقة من اعتادت العيش معهم.. ولم تعد تطيق صبرًا للرحيل عنهم.

* * *

الفصل الرابع

(المُناظرة)

تحركت العربة بعد ذلك نحو وِجهتها التالية، يُخيم الشرود وسكونه على من بداخلها، كان (جيوفاني) يجلس شارد الذهن في رحيل خادمتهم، يختلس كل بضع لحظات النظر إلى عمه المُنشغل فيما هو آت، فهو اليوم على موعد مع مُناظرة أحد قرنائه من العلماء، ذلك العالِم (فولتا) الذي يطمح للإطاحة بما قد وصل إليه من اكتشاف.

باغت الشاب شرود عمه بالحديث بعد ذلك:

- "يتوجب علينا البحث عن خادمة للمنزل في وقتٍ قريب".

انصرف شاغل (لويجي) حينها لينظر نحو ابن أخيه الذي أكمل معللًا:

- "إن والدتي في حاجة ماسة إلى من يرعاها طيلة الوقت".

نظر إليه عمه متفهمًا مطلبه، ليلتفت إلى السيد (هنري) الجالس عن جواره محدثًا إياه:

- "أريدك أن تدبر أمر إحضار خادمة جديدة لنا في القريب العاجل".

ليصمت لوهلة مُتأنيًا في التفكير، قبل أن يستطرد:

- "فلتدبر لنا توظيف خادمة يافعة، تستطيع إعانة أرملة أخي في متطلباتها اليومية دون أن تكِل".

ثم عاد للحديث بنبرة جادة:

- "واحرص على ألا تنحدر من عائلةٍ متدينة، فيكفينا ما قد طالنا من هؤلاء الأتقياء".

أومأ السيد (هنري) برأسه، وهو يجيبه:

- "سوف أهِم بعد الانتهاء من مسعانا، بالذهاب إلى مكتب توظيف للخادمات يملكه أحد معارفي.. لأجد لك ضالتك وآتِي بها في القريب".

عاد الصمت ليخيم على الرفاق، منتظرين الوصول إلى وجهتهم.. نحو مُجمّع (هولمز) للبحث الأكاديمي والعلمي، ذلك الصرح العظيم الذي تم بناؤه لخدمة العِلم ليستضيف كبار العلماء من شتى أنحاء البلاد، والذين يأتونه لطرح ودراسة أهم الفرضيات والاكتشافات العلمية، تتناطح به أفكارهم وتعلو أصوات جدالهم تحت راية العِلم التي توحِدهم جميعًا.

ومع اقتراب وقت الظهيرة، وصلت العربة إلى المُجمع العلمي، ليترجل الرفاق منها بينما حمل الطبيب الشاب حقيبة عمه المُتكدسة بالأوراق والرسومات التوضيحية المستخدمة في المُناظرة، لم يشغلهم الحديث الخافت لقرنائهم العلماء، والذي صاحب خطاهم نحو البوابة، ليفتح أحد العاملين لهم الباب بانحناءة بسيطة، بينما علا وجهه نظرات التقدير والإجلال.

تخطى الثلاثة الطُرقات متجهين إلى إحدى القاعات التي تستضيف المناظرة المُرتقبة، مُقبلين على أحد أهم المناظرات التي

احتضنها ذلك المُجمّع العلمي منذ وقتٍ طويل، والتي قد أُعلِن عنها منذ أسابيع بين مجتمع العلماء، وما أن دخل الرفاق القاعة المزدحمة بقرنائهم، حتى رأى (لويجي) نظيره يقف على مقربة منه مُنصب التركيز في تحضير أوراقه، دون أن ينشغل بقدومه.

وقف (لويجي) في حديث مع رفيقه، بينما تحرك (جيوفاني) في همة من أمره ليضع الحقيبة على المنصة خاصتهم، انكب نحو الحقيبة ليُخرج بعض الأوراق ويبدأ في ترتيبها، لينتهي بعد ذلك من عمله، فيرفع هامته متأملًا القاعة من أمامه التي قد امتلأت عن بكرة أبيها بالجموع المُتلهفة لمشاهدة تلك المناظرة.

اصطف بالمقاعد المواجهة للمنصة لفيفٌ من كبار العلماء القائمين على المُناظرة، يجلس من خلفهم البقية في مدرجات عرضية، تعلو الواحدة تلو الأخرى تباعًا، ووصولاً لنهاية القاعة، تقطعها ممرات طولية للعبور، وقد سارع البعض لصعود تلك المدرجات والجلوس سريعًا في مقاعدهم، لينظر (جيوفاني) حينئذٍ تجاه المقاعد المزدحمة ويسعد في قرارة نفسه، متمنيًا اليوم الذي يأتي لهذا المكان كأحد المناظرين الذين ينتظر بقية العلماء نقاشاتهم العلمية.

نهض أحد العلماء القائمين على المُناظرة من مجلسه، وقد أخرج ساعة جيبه متأملًا عقاربها للحظات، لتعلو نبرة صوته ويُعلن عن غلق باب القاعة وبدء المناظرة بعد دقائق قليلة.

قارب (لويجي) ابن أخيه ليقف على المنصة ويطالع الأوراق الخاصة به، لينصرف (جيوفاني) مبتعدًا وبصحبته السيد (هنري)،

نظر (جيوفاني) لوهلة نحو المدرجات المُزدحمة متمهلًا في خطاه، حتى اهتدى ببصره لمقعدين شاغرين يقبعان بالصفوف العُليا، فأسرع نحوهما ليتبعه رفيقه ويتبوآن مقعديهما وسط الجمع، وهما يتابدلان النظرات الحماسية لما هو قادم.

قُضيت الدقائق المعدودة لتبدأ المناظرة المرتقبة. تابع الجميع بآذان صاغية وعقول مترقبة حديث العالمين، كانا يتجادلان بنبرة مُنمقة ونفسٍ شرسة، تتناطح أيديهما في الهواء في غضب، بينما تتراشق أقلامهما نحو الرسومات الموضوعة خلف كلٍ منهما.

جلس (جيوفاني) متابعًا الأمر في حماس بالغ، بينما ارتسمت علامات الرضا على وجهه وهو يشيع البصر في الجوار نحو مُشاهدي هذا النزال العلمي الكبير، تأمل الأفواه التي تبادلت الهمهمات بين سخطٍ وإعجاب، ليقع بصره الشارد بعد ذلك على أحدهم دون أن يستطيع صرف النظر عنه.

كان (جيوفاني) حينها ينظر نحو شخصٍ غارقٍ في صمته، يجلس وحيدًا يطالع المناظرة في سكون، بعينان لا تبارحان موضع وقوف عمه، بدا وجه ذلك الرجل لوهلة مألوفًا له، وقد شعر بأنه قد رأى تلك الملامح من قبل. مرت دقائق عدة وهو مُنصب بناظريه نحوه، حاول جاهدًا تذكُر موطن رؤياه في عقله الحائر، ليستمر في النظر إلى ذلك الوجه الصامت ذي الندبة الغائرة بوجنته، والذي كان عاقد البصر تجاه (لويجي) وكأنه ينتوي أمرًا ما في طيات نفسه.

لم يمر من الوقت الكثير حتى أباح عقل (جيوفاني) بعدئذٍ بمكنون

ذكرى رؤية ذلك الرجل، لتعلن عيناه عن فزع ما قد أدركه للتو، كان هذا الشخص هو من رآه منذ أسابيع قليلة، يوم أن أبصر وجوده وسط تلك الحشود الغاضبة حين قُذِفت الثمرة الفاسدة تجاه العربة أثناء طريق عودتهم للمنزل.

أكمل العالِمان مناطحة بعضهما البعض بالحديث الغاضب، وطيلة ذلك الوقت لم يستطع (جيوفاني) صرف ذهنه عن ذلك الرجل متوجسًا في أمره، فقد كان الأخير يتحسس كل برهة موضع جيبٍ داخلي في معطفه، وكأنه يطمئن على وجود شيء ما بداخله، فيهدأ باله فور ملامسته ويُعزِز من إرادته تجاه فعلةٍ ينتويها.

ليفاجأ الشاب بعد ذلك بنهوض الرجل من مجلسه في هدوء، ويتحرك جانبًا للخروج من صف المُدرج خاصته عاقدًا النظر صوب المنصة، فاشتعل القلق بعقل الطبيب الشاب وهو يشاهد الرجل يتجه بخطاه نحو عمه، وقد أخرج ما في جيبه ليخفيه جانبًا في طيات أحد أكمام معطفه.

لم يستطع (جيوفاني) تبين ما يخفيه الرجل وقتئذٍ، ولكن كانت نظرات الرجل الصارمة لعمه كفيلة بأن يدفعه عقله للانتفاض من مجلسه، وقد خشي إضاعة الوقت بالتحرك جانبًا للخروج من تلك المدرجات المزدحمة، فاعتلى بقدميه صفوف المدرجات من أمامه ليتقافز من بين أكتاف الجالسين بها عازمًا على اللحاق به قبل فوات الأوان.

تسارعت خطى الرجل ليُقارب المنصة على بُعد خطواتٍ منها،

وهو يخرج في ترو ٍ ما يخبئه بين طيات كُمه، وقبل أن يصل إليها وتُقدِم يده على خطيئتها، اصطدم به جسد (جيوفاني) بقوة غاشمة أطاحت بالاثنين في الهواء، ليسقطا أرضًا فتطاير خِنجر على الأرض بالقرب من يد الرجل.

التفت (لويجي) حينها نحو الجسدين المطروحين أرضًا ليقع بصره على الخِنجر المُلقى بجوارهما، فتتراجع خطاه عن المنصة بحركه تلقائية وقد تملك منه الخوف.. حاول القاتل حينها الاستماتة في الزحف بجسده صوب خِنجره آملًا في أن تنال يده مرادها، ليسارع (جيوفاني) في الزحف هو الآخر واعتلاء جسد الرجل محاولًا الإمساك بيده قبل أن تصل إلى الخنجر.

علا ضجيج العلماء حينها وهم يموجون من أماكنهم في قلقٍ جليّ، حاول القاتل حينئذٍ الانتفاض بجسده ليظفر برقبة العالِم المرتعب، لتتكاتف الأيدي من حوله وتُعيق حركته فيفشل مسعاه، لينظر القاتل حينها بعينين تضجان بشرار الغضب نحو (لويجي) مردِدًا جملة واحدة ارتفع صياحها بأرجاء المكان:

- "الموت لك يا عدو الرب".

مرّ يومان على تلك الحادثة، بعد أن انتهت المناظرة دون استكمالها.. ومن داخل أحد الغرف الخاصة بمخفر الشرطة كان يجلس العالِم (لويجي) منتظرًا قدوم المحقق (جونز/ Jones) القائم على التحقيق في أمر ذلك القاتل، قضى الوقت المنتظر بعقل مُنشغِل فيما حدث، تساءل حينها حول السبب وراء محاولة

قتله، وكيف تمكن القاتل من الاندساس والولوج داخل ذلك الصرح العلمي؟.. أو بالأحرى.. من الذي دبر أمر دخوله لتنفيذ عملية اغتياله؟.

كان على دراية كبيرة برفض البعض لمسعاه العلمي، ولكن لم يتصور عقله يومًا أن يصل الأمر من الكراهية إلى محاولة قتله، تساؤلات شتى جالت بعقله ساعدت على انقضاء الوقت، حتى دلف المحقق للغرفة محييًا إياه، ليجلس الاثنان في تشاور من أمرهما، وقد أفصح المحقق عما وصل إليه التحقيق حتى تلك الآونة.

كان القاتل متكتمًا في البوح عن أي أسئلةٍ وُجهت إليه، لتبوء محاولات المحقق في استجوابه بالفشل بينما يُعلن الصمت راية لفعلته، ليأتي خيط وحيد يمكن أن يقودهم لمعرفة منبت تلك المؤامرة.. لم يقم المحقق بالإفصاح حينها عنه، بل اكتفى بالطلب من العالِم الذهاب برفقته لزيارة أحد أصدقائه القدامى، ليبدأ السعي نحو إزاحة الستار عن المجهول.

ومن داخل كنيسة (الثالوث المقدس/ Holy Trinity) جلس الاثنان في آخر صفوف الحاضرين يستمعان إلى القس وهو يُلقي قُداس الأحد على الرعية من أمامه، وما أن انتهى القُداس وهمّ الجميع بالمغادرة، حتى ذهبا إلى القس ليطلب المحقق ملاقاة أحد شمامسة الكنيسة.. فلم تمر لحظات حتى أتى إليهما الشخص المنشود.

صافح المحقق صديقه القديم منذ الطفولة بشوق لقاء طال أمده

مُعرّفًا إياه بـ (لويجي)، ليقوم المحقق بعد ذلك بسرد ما بدأ من أمرٍ وما آل إليه التحقيق، ليزيح الستار عن بقية الأحداث، فمنذ بداية التحقيق مع ذلك القاتل لاحظ المحقق الوشم المرسوم على أحد ذراعيه، ليعلم بانتمائه لطائفة سرية تُدعى (يد الرب)، تلك الطائفة التي تكونت من الأتقياء، وآل مسعاهم في نهاية الأمر إلى غايات أخرى.

وحين أتى استفسار العالِم (لويجي) عن كيفية معرفة المحقق بأمر تلك الطائفة، وسبب معرفته بانتماء القاتل إليهم، أزاح الشمّاس حينها بأحد أكمام عباءته عن يده، ليجيب عن استفساره، وهو يظهر معصمه العاري نحوه، قائلًا:

- "لأنه حتمًا يحمل وشمًا مثل ذلك".

انجزع العالِم فور سماعه لحديث الشمّاس له، ليتأمل الوشم من فوق ذراعه، والذي لم يرَ مثله من قبل، كان معصم الرجل يحمل وشمًا صغير الحجم لغيمة في كبد السماء، يشُق بياضها ذراع ممدودة تجاه الأسفل.

ترأى للشمّاس وقتها نظرات (لويجي) المتوجسة نحوه، فبدأ بالحديث مُلقيًا الضوء عما يجهله الأخير.

كانت طائفة يد الرب في بادئ الأمر، قد نشأت عن جماعة من الأتقياء يؤمنون بأنهم يد الرب في تنفيذ مسعاه في مساعدة البشر، يؤتون الخير للعباد ابتغاء مرتاضه، ليُكلل أتباع تلك الطائفة لجهودهم، بذلك الوشم الدال على الخير في رمزيته، فتزهوا النفوس

بالحصول عليه ويسعد الشمّاس في بادئ حياته بالانضمام إليهم، ولكن مع مرور الوقت واتســـاع دائرة المنضمين لتلك الطائفة، أتى الكثير من المتشددين ليضْفُوا صبغة معتقداتهم المتطرفة على البقية.

فتنقضي السنوات، ويبدأ الأمر في التغيُر عن المسعى السابق له وما نشأت الجماعة لأجله، فبعد أن كانت تلك الطائفة ترتكز على كونها يد الرب التي تساعد عباده، باتت يد الرب التي تتوعد بأفعالها

للآثمين، ثم بمرور الوقت تبدل الحال لتصبح يد الرب التي تنتقم من أعدائه وتجعلهم عِبرة لمن حولهم.

تقوم بالخلاص من المفسدين في الأرض، تغتال نفوسهم وتُدنس حُرمة أجسادهم في قبورهم، لكي يُلاقوا الرب في خجل منهم، بينما يَلقى أشرّ الآثمين عقاب أجمّ، فتُقطّع أوصالهم ويُنكل بهم، فلا تهنأ أجسادهم في سكينة بعد موتها[4]، وقد بات أتباع الطائفة على يقين بوجوب أفعالهم تلك، فلولاها لهنأت الأنفس المذنبة وسادت الظُلمة، وطغى الآثمون في الأرض، ونهش الكلاب دين الرب.. فهم في نظر أنفسهم خُدام للحق.

أعاد الشمّاس بعد ذلك من اعتدال هندامه مجددًا وهو يكمل حديثه معللًا سبب انشقاقه عنهم، وكيف انصرف عن اتباع تلك الطائفة فور أن تحول أتقياؤها إلى مغتالين واهمين بكونهم إرادة الرب في تنفيذ غضبه.

انقضت لحظات من الصمت المُطبق على الجميع، حتى أباح (لويجي) بما يخشاه عقله مستفسرًا:

- "وهل أصبحت الآن أحد أهدافهم؟".

ليجيبه الشّماس على الفور:

- "بل أصبحت الآن أحد أهم أهدافهم".

تعجب العالِم من حديث الرجل له، ليُكمل الشماس حديثه:

- "لا أستطيع أن أُنكر اعتقادي نحو كونك أحد العصاة.. فأنت تتخذ

من علمك ما لا شأن لك به، تسعى من خلاله لعودة أراوحٍ لبَّت نداء بارئها، ولكنك لا زلت في نظري تستحق الرحمة والمغفرة، ولكنك بتَّ الآن في نظرهم آفة فاسدة وجب التخلص منها".

ثم توقف عن الحديث لوهلة لينظر إلى (لويجي) بنظرات مُتشككة، وهو يكمل:

- "أخبرني أيها العالِم، ما بدأ بمحاولة إحياء أطراف الحيوانات النافقة.. إلامَ سوف يؤول الأمر حينئذٍ؟ إن نجحتَ في مسعاك هذا.. هل ستكتفي بذلك النجاح العلمي فقط؟.. أم سيغويك شيطان العِلم لما هو أبعد من ذلك؟".

نظر (لويجي) نحوه في صمت دون أن يجيبه في شيء مما حدثه به، ليبادر المحقق الحديث إليه بجدية تامة:

- "يتوجب عليك الحذر في الفترة القادمة".

ليجيبه (لويجي):

- "إني ألازم منزلي في أغلب الأوقات دون مبارحته، ولكنني سأزيد من حرصي في الأيام المُقبلة حتمًا".

حينها قارب الشمّاس وجهه من (لويجي)، متحدثًا في جمود يعلوه نظراته الواثقة فيما هو آت:

- "فلتفعل ما شئت.. ولكن ثق بأنك لن تأمن على حياتك، طالما تستمر بمسعاك هذا".

لم تكن كلمات الشمّاس للعالِم هينة على نفسه، فظلت شاغلة

لتفكيره طيلة وقت العودة، وقد كان (لويجي) لا يحمل همًا لأيٍ مما كان يحدث في السابق، ولكنه أدرك أن الحال قد تبدل به، فور أن عبرت العربة التي تصطحبه بجانب المتظاهرين المتواجدين في بداية الشارع المؤدي لمنزله، والذين لا زالت تعلو أصواتهم المُنددة بأفعاله كالعادة، وللمرة الأولى تراجع (لويجي) في مجلسه مبتعدًا عن نافذة العربة خشية أن يراه أحدٌ منهم، وقد أدرك ما بات يحيط به من خطر دون أن يدري متى تضرب تلك الطائفة ضربتها التالية.

* * *

مُذكرات مجهول

مذكرتي العزيزة.. اشتقت للحديث معك بعد عناء يومي هذا، ها أنتِ بصحبتي في مبيتي داخل جدران ذلك السجن الكئيب، لقد تبدل الحال يا عزيزتي فبات عملي الجديد هو مقر إقامتي لأسابيع دون راحة تُذكر، لم أكن لأستطيع تركك وحيدة بمفردك، أو بالأحرى.. لم أحتمل أن تتركيني وحيدًا في تلك الليالي الطوال، واليوم أخشى أن يؤرق قلمي أوراقك بما سأحدثك به، فاليوم كنت على موعدٍ مع ما قد خبأه القدر لي.. دون سابق إنذار.

ها أنا في يومي الثالث من العمل، مرت الظهيرة برتابتها المعتادة، كنت أجلس وقت راحتي أتناول طعامي في عُزلة من أمري، ليأتي أحد زملائي ويحدثني بأوامر جديدة أُسندت إليّ، كان المرض قد اِشتد على أحد الحراس بالأمس، وهو المسئول عن اصطحاب السُجناء الجُدد إلى المفتش (تشارلز/ Charles) للقيام بالتحقيق معهم، لتُضاف مسؤليته على عاتقي منذ الآن، فيخبرني زميلي حينها بطلب المفتش لحضور أحد السجناء للتحقيق معه، نهضت في عُجالة والطعام يلوك في فمي إلى الزنزانة لأُخرج السجين (فوستر)، وأهمّ باصطحابه للممر المؤدي لغرفة التحقيق.

تبينت حينها من نظرات وجهه الناعسة والهالتين السوداويتين اللتين سكنتا أسفل جفونه بأنه لم يحظَ بالنوم طيلة الليل، لأقبض على ذراعه فيشتد القلق بقلبه قاصدين وجهتنا.. كان باب تلك الغرفة القابعة في آخر الممر مفتوحًا في انتظار قدومنا، استطعنا

عند قُرابة بضعة أقدام سماع صوت قرقعة نعليّ حذاء المفتش من الداخل، فتحركت خطاي بحركة عسكرية منضبطة لأدلف بعد ذلك لداخل الغرفة بصُحبة السجين.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى بها المفتش (تشارلز) منذ شَغلي لهذه الوظيفة، كان رجلًا في منتصف العمر، يمتلك جسدًا هزيلًا، أضفى بياض بشرته البراءة على ملامح وجهه الهادئة، يجلس على مقعده مواجهًا مكتبه، بينما لا تبارح عيناه الأوراق الموضوعة أمامه، يطالعها في صمت وقد استمر في قرقعة نعليّ حذائه بالأرض، دون أن يلفت قدومنا انتباهه.

تركت حينها ذراع السجين لأطرق بقدمي الأرض مؤديًا التحية العسكرية نحوه، رفع المفتش حينها هامته نحو السجين ليتأمله في صمت دام للحظات، ثم ترك الأوراق من يده جانبًا ليبدأ بحديث مهذب هادئ تجاه (فوستر) وسبب استدعائه له، كان تلك الفرصة الأولى التي تُسنح لي لمشاهدة مُجريات التحقيق مع السجناء. نقاش مُطوّل بين الاثنين، علت به اتهامات المفتش نحو السجين ليعرض له في النهاية ما قد أسفرت عنه شهادة الشهود.

أتت إفادة الشاهدة الأولى - وهي والدة الزوجة الراحلة - بالعلاقة المتوترة التي جمعت ابنتها بزوجها، سنوات طوال من العِراك الأُسري، مرات عدة رحل بها مبتعدًا عن عائلته تاركًا إياهم دون مصدر للإنفاق، لتقسو الحياة على تلك العائلة في المرة الأخيرة من هرب الزوج، وتجوب الزوجة الطرقات بحثًا عن لقمة العيش لتعول بها فتياتها الثلاثة.. وقد أتى اليوم الذي فاض

بها الكيل، لتحاول إعادة الأمور إلى نصابها مرة أخرى فتذهب مصطحبة إحدى صغيراتها لمحاولة استرجاع زوجها الناقم على حياته الزوجية، لكي يعود لرؤية أطفاله المُهملين والتكفل بإعالتهم، متوعدة إياه باللجوء إلى الشرطة، لتُرهبه بعزمها على البوح لهم عن مرارة ما كانت تعانيه من عنف أسري لاقته على يديه، والتي دائمًا ما تركت تلك النزاعات آثار لكماته على وجهها وجسدها الضعيف، لتنتظر الوالدة بعد ذهاب ابنتها وحفيدتها بإتيان خبرعودة الزوج لصوابه.. ليأتي لها خبر رحيلهما عن الحياة بدلًا من ذلك.

أتى عن لسان المفتش بعد ذلك الإفادة الثانية، وهي لصاحب النزل الذي كان يقيم به الزوج الهارب، ليشهد الرجل بوقائع ما حدث منذ مجيء الزوجة لملاقاة زوجها بغرفته المستأجرة. ما بين تشاجُر وصراخ، شاهد الرجل في هذا اليوم أسوأ النزاعات العائلية التي مرت عليه في ذلك النزل المشؤوم، لتخرج الزوجة بصحبة صغيرتها في عشيّ اليوم نفسه، ويُبارح الزوج غرفته بعد عدة ساعات، ولا يُرى لهم بعد ذلك من أثر سوى ما قد علمه بعد عدة أيام في الصحف[5].

توقف (تشارلز) عن الحديث بعد انتهائه من سرد إفادة الشهود، ليأتي بعد ذلك حديث المُتهم متلعثمًا في توترٍ بالغ، ما بين تبريرات عن قسوة العيش مع تلك الزوجة التي تُصاب بنوبات من الغضب والعصبية غير المبررة لتنغص عليه حياته.

وما بين تبرير عَجزِه عن إعالة عائلته والعبء الذي بات يُثقل

كاهله، ليهرب الزوج مرة أخرى فتطارده الزوجة الغاضبة مكرِهة إياه على العودة إلى ما لم يستطع عليه صبرًا، وفي يوم لقائهما الأخير أيقظته من غفوته، لتُبلغه بذهابها للتنزه مع ابنتها عند البحيرة المُطلة على القنال، طالبة منه رؤيتهما للمرة الأخيرة لوداع ابنته قبل رحيلهما، وقد استسلمت للأمر الواقع عازمة على الانفصال عنه دون رجعة، فأفاق بعد سويعات من قيلولته وذهب للحانة المُلاصقة للنزل، ليُباغت الشراب عقله وينساب الوقت منه دون أن يلحظ، فيذهب لملاقاتهما بعد مُضي ساعتين ليجدهما غارقتين في ظُلمات المياه الضحلة.

يا لها من تفسيرات واهية لا تنطلي على عقل طفل صغير.. فضحت ابتسامة ساخرة وجهي وأنا أُحدث نفسي عن اللغو الذي أتي من ذلك السجين، لأتمالك سخرية ملامحي وأعود سريعًا للانضباط في وقفتي. لم تكن مبررات (فوستر) حينئذٍ للدفاع عن نفسه كافية لرسم أي ملامح على وجه المفتش، فمنذ بداية حديثهما كانت نظرات الجمود التي لا تنبئ بأي مشاعر تعلو وجهه، لتشعرك أنك أمام أعتى لاعبي البوكر الذين لا تفضح وجوههم على ما تنطلي عليه أنفسهم.

وهنا تحرك (تشارلز) نحو الجدار من خلف السجين والذي ارتكز بجانبه أحد المقاعد المتهالكة، ليأتي به إلى منتصف الغرفة ويشير للسجين بالجلوس، ترددت حينها خطى الأخير في التقدم لأهِمَّ بالتوجه إليه وأدفع بجسده نحو المقعد ليتموضع في مجلسه، بينما استمر في استكمال تبريراته عن عدم إلحاق يديه الأذى

بزوجته وابنته الصغيرة.

ربت المفتش على كتف السجين (فوستر) لكي يُهدئ من روعه، متوجهًا بخُطى هادئة نحو دلو صغير يتم وضعه أسفل الأسطح التي تتقطر بالمياه في الأيام المُمطرة، والتي يبدو أنها كانت على موعد مع عملها تجاه الأمطار التي باغتتهم في صباح اليوم، وقد ارتمى بداخل ذلك الدلو منشفة من القماش ينغمس غالبها في الماء بينما تدلى طرفها للخارج.

نظر حينها المفتش للأعلى ليجد السطح قد توقف عن نحيبه السابق، فجثى للأسفل ليُغرق قطعة القماش في المياه ويأتي بها ليمسح يديه، فيعود ليقف خلف السجين مرة أخرى، وهو يتمعن النظر في المنشفة التي يمسك بها دون أن تبيح شفتاه بما هو مُقدم عليه من فِعلة.

أحاط المفتش (تشارلز) بغتة بالمنشفة ليقبض بها على وجه السجين ليكتم القماش المُبتل أنفاسه المرتعبة، فجذب (تشارلز) قطعة القماش للخلف بقوة وقد أعمته ثورة الغضب، لتتراجع رأس السجين للوراء مُقارِبة صدر المفتش من ورائه، حاول السجين حينئذٍ الانتفاض من مجلسه، لتصارع يداه إمساك القماش وإبعاده عن وجهه، بينما شُلت حركة جسده من قوة جذب رأسه للخلف. نظرة واحدة صارمة أتت على الفور من المفتش نحوي لأُسارع بالقبض على يدي السجين، وإحكام موضعهما نحو مسندّي المقعد شالًا انتفاضات يديه المُرتعبة، فأخذ يدفع حينها بقدميه للأمام في استماتة، فما كان مني سوى أن اعتلت قدمي

رُكبتيه ليعجز عن الحِراك كليًا، وينصاع جسده رغمًا عنه في النهاية.

يا إلهي ما الذي تقترفه يداي الآن، لم يكن الذعر من نصيب السجين وحده حينئذٍ، فها أنا أعاون المفتش على إنزال العذاب بذلك السجين دون القدرة على أن أرد له أمرًا وقد شُلّ عقلي، بينما كان جسدي يعمل كآلة تنصاع لأوامر سيدها.

قارب المفتش وجهه نحو أُذن (فوستر) الذي كانت رأسه تتأرجح يمينًا ويسارًا، محاولًا الإفلات دون جدوى، فيأتي (تشارلز) بحديث خافت وبوجه تخلى عن جموده، فيستمع إليه السجين مُكرهًا، وأنصت له أنا الآخر رغمًا عني.

تطايرت الكلمات الغاضبة من فم المفتش (تشارلز) دون ترتيب واضح لها، وهو يزيد من قسوة جذب رأس (فوستر) للوراء.. وقد شرد في جموح خيالاته ساخرًا من عجز وضعف السجين أمام قبضتي يديه، بينما يعيد عليه السؤال عما يشعر به الآن من ألم، دون القدرة على دفع ما يحدث له أو ردعه، مُعربًا عن حتمية إذاقته لهذا العذاب الذي تجرعت الزوجة منه دومًا.

صمت فوه المفتش الغارق في ثرثرته منذ لحظات عابرة، لينصرف ذهني عن متابعة حديثه السابق ويفزعني ما قد كنت عنه غافلًا، لقد توقف جسد السجين عن الحِراك والمقاومة، وخبت اندفاعات يديه التي كنت منذ قليل أحاول جاهدًا تحجيم انتفاضاتها.

أتت صرخة مُستجدية من حنجرتي تجاه المفتش على الفور،

ليُفيق صوتي شرود عقله ويعود للواقع المرير من أمامنا، فأزاح المنشفة عن وجه (فوستر) بعد ذلك، لتتهاوى ذقن السجين وثُلامس صدره في استسلام تام لما قد عاناه منذ لحظات، تركت حينها يديه لتسقط من جانبيه وقد انخلع قلبي مما نوشك عليه، ليأتي المفتش من جانبي وينظر نحو (فوستر) بعينين عاد الجمود ليسكن موضعه بهما.

لكمة غاشمة أتت من قبضة (تشارلز) لتنغرز أسفل القفص الصدري لـ (فوستر)، فتجحظ عيناه على الفور ويشهق لاستعادة أنفاسه التي سُرقت منه.. فانكفأ حينها بينما تملّك السُعال منه، وسال لعابه على الأرض التي ارتمى عليها جسده، فتحرك المفتش بخطاه الهادئة لمكتبه ليعاود مُطالعة الأوراق من أمامه دون أن ينظر نحونا مجددًا.

قبضت يداي المرتجفة على ذراع السجين لأعاونه على النهوض مجددًا، فتعجز قدماه على الثبات ليرتمي بحمل جسده نحوي، لأهمّ بمعاونة وهن قدميه على التحرك للخارج واصطحابه لزنزانته مرة أخرى.

عدت لداخل غرفة راحة الحرس، لينظر لي أحد زملاء المناوبة متعجبًا من شحوب وجهي ونظراتي الفزِعة، مازحًا عن كوني قد رأيت أحد الأشباح داخل الطرقات، ارتميت بجسدي من جانبه، بينما لا زالت أوصالي ترتجف رهبةً لما عهدته منذ قليل، ليسترعيه الاهتمام بعد ذلك وأنا أُحدثه عما بدر من المفتش والتعذيب الذي كاد أن يودي بحياة السجين.

التزم زميلي الصمت دون أن يظهر أي بادرة تعجب مما حدثته، ليكن ما أخبرني به بعد ذلك هو ما كنت أجهله.. ويعلمه الجميع سواي، فوسط تلك الليال الطويلة التي يقضيها الحرس في هذا السجن تتناثر الأقاويل والحكايات، وتفشي الأفواه بأسرارها، ليأتي اليوم الذي تحدث فيه أحد الحرس بسرٍ يعلمه عن المفتش (تشارلز)، وقد كان ذلك الحارس يعمل منذ سنوات مع أحد المفتشين زملاء (تشارلز) في عمله السابق، قبل أن يلتحق الأخير بالعمل في هذا السجن منذ فترة طويلة، والذي كان على علاقة وطيدة بالمفتش (تشارلز) ويعلم ما حدث له في بداية مسيرته الوظيفية، لتتناقل الألسن الحادثة التي كانت السبب في ما أصبح عليه المفتش الآن.

كان (تشارلز) في بداية حياته الوظيفية، تجمعه علاقة حب مع ابنة أحد المسئولين بالغي النفوذ، ليُقدم يومًا على التقدم لخطبتها أملًا في تكليل حبهما بالزواج، فتأتي الإجابة النافية والمستهزئة نحو مركزه البسيط، والذي لا يليق بابنة الرجل مُطلقًا، فتنتهي علاقتهما برفض والدها، ليؤول الأمر في النهاية إلى زواجها من أحد أبناء أصدقاء أبيها الأثرياء.

ذلك الزوج الغاشم الذي أذاقها الأمرّين بالقول والفعل طيلة فترة زيجتهما، ليأتي اليوم الذي أسفر بطش يديه بالتسبب في إزهاق روحها، فتحول نفوذ الأثرياء إلى إبطال الحق، فلا يطوله طائل من أذى أو حساب على عاقبة فعلته.. لكم أراد (تشارلز) الانتقام من ذلك الزوج، حتى أنه تمنى أن تطُول يداه رقبته

ويذيقه من العذاب ما قد أذاقه لمن أحبها ولم يحب سواها طوال حياته.

أعلمني زميلي بعد ذلك بأن السجين (فوستر) لم يكن وحده من تعرض لغضب المفتش، بل أتى من قبله في فترة سابقة أحد قتلة زوجاتهم، والذي تعرض لتعذيب وبطش أودى بحياته في النهاية، ليُلقى في بئر زنزانته مُزهق الروح، وقد تم تدوين سبب موته في سجلات السجن لتعرضه لشجار مع زملائه في المحبس، ويُقفل باب التحقيق في أمر موته دون أن يلقى المفتش (تشارلز) أي عقاب على جريمته.

حاولت جاهدًا المحافظة على هدوء نفسي بعد أن انتهى زميلي من قصّ ما يعلمه عليَّ، ولكن أبت نظرات الشفقة على وجهي إلا أن تفضحني، وقد أيقنت ما سوف يلاقيه (فوستر) من عذاب لاحق على يد من يرى الظُلم الذي أحاق به متجسدًا في هذا السجين، فقد تبينت أن انتقامه من سافكي الدماء وخاصة قتلة زوجاتهم، هو منفِس صغير لمكنونات صدره الغاضبة، تجاه ما لاقته محبوبته من ظلم أودى بحياتها في النهاية دون استطاعته أن يطفئ لهيب انتقامه.

الفصل الخامس

(أوفيليا)

جلس (لويجي) على مقعده يطالع الجريدة اليومية كعادته كل صباح، لتجلس السيدة العجوز على أحد المقاعد المجاورة له تُحيك قماشة مُزدانة بالورود، وقد ارتمى (هيكتور) بجسده من أسفل قدميها، لينهض الكلب من جثوته وتعلو منه زمجرة خافتة تجاه الباب مُعلنًا قدوم أحدهم، فتأتي بعد ذلك طرقات هادئة على الباب، لينادي (لويجي) على ابن أخيه في الأعلى لكي يأتِ على الفور، تأفف الشاب وهو يهرول للأسفل وقد تعب من كثرة الطلبات التي بات يلبيها في الأيام الماضية داخل هذا المنزل.

فتح (جيوفاني) الباب ليلاقيه السيد (هنري) ممازحًا إياه لتأخره في الاستجابة لطرقاته، ومن ورائه تواجدت فتاة ضئيلة الحجم تحاملت يداها في حمل حقيبة خاصة بها، وقد تتبعتْ بعد ذلك تقدمه نحو البهو بخُطى مُستحية، ليقارب الرجل مجلس العائلة ويُلقي بالتحية عليهم.

جلس (جيوفاني) بجوار والدته متأملًا زائرتهم الجديدة لثوانٍ، وقد أشار السيد (هنري) إلى الفتاة التي وقفت تتوسط مجلسهم، قائلًا:

- "اسمحوا لي بتعريفكم بخادمتكم الجديدة.. الآنسة (أوفيليا)".

تملّت الأعين في مُطالعة (أوفيليا) لثوانٍ، بينما شرع السيد (هنري)

يُكمل حديثه:

- "لقد أشاد بها صاحب المركز كثيرًا، وسوف تكون خير معين لكم".

تبادلت الفتاة النظرات الهادئة مع السيدة العجوز، وقد لاقت علامات ترحيب قدمتها لها أعين الجالسين، ليتحدث (جيوفاني) إليها مبتسمًا وقد تسارعت العبارات على لسانه:

- "(أوفيليا)؟.. مثل ذلك الاسم في مسرحية هاملت؟".

ابتسمت الفتاة لتجيبه بنبرة هادئة ورأسٍ مُنكس في خجل:

- "لقد ولدت في منزل يشغف أصحابه الفن، وقد أوصى السيد صاحب المنزل بذلك الاسم ليتخذه والدي لي".

اجتاحت نبرات صوتها العذب شجون روح الشاب حينئذٍ ليزيد من تأمله لها، كانت (أوفيليا) فتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها، ازدان وجهها بنمشٍ أضفى النضارة على بشرتها البيضاء، بينما كان يُكلل رأسها بتاج من الشعر المُتلونّ بحِمرة الجمر. ليجلس (جيوفاني) متمليًا النظر بعينيها التي أطل الخجل منها، وزاغت عن ملاقاة عينيه من طيلة تأمله لها.

لم يكن يهتم (لويجي) حينها بحسن إطلالتها، ليبوح على الفور بأكبر شاغل يسُكن عقله.

- "هل تم تعميدك؟".

أماطت الفتاة شفتيها، لتجيبه في هدوء:

- "لا.. فلم أولد في كنف أسرة متدينة".

لزمت الفتاة الصمت بعد ذلك؛ لتمر لحظات من ترقب الأسرة لقرار (لويجي) النهائي، ليتأمل بدوره هيئتها الهزيلة ووجها اليافع، وهو يخشى ألا تقوى على رعاية سيدة هذا المنزل والقيام بالعمل الشاق به.

ألقى نظرة سريعة نحو أرملة أخيه، ليجدها تنظر لـ (أوفيليا) بابتسامة راضية وقد ارتاح قلبها لها، ليفكر بعقله الذي لا يهدأ لثوانٍ، فيحزم قراره في النهاية وهو ينهض من مجلسه قائلًا للفتاة:

- "فلتعاوني سيدتك على الصعود إلى غرفتها لترتاح قليلًا".

ثم نهض من مجلسه متوجهًا إلى معمله الخاص، ليسارع السيد (هنري) وابن أخيه ليتبعاه، التفت حينها (جيوفاني) من خلفه ليختلس نظرات خاطفة نحو خادمتهم الجديدة، ثم عاد لينظر إلى الأمام وقد ارتسمت ابتسامة سعادة وارتياح على وجهه، لم يكن يعرف لها من سبب.

ألقت الفتاة حقيبتها أرضًا على الفور، لتُسارع بإمساك يد سيدتها وتعاونها على النهوض من مجلسها للذهاب إلى غرفتها، فتحركت الاثنتان لصعود أولى درجات السلم، فتتكئ السيدة العجوز بحِملها على يد الفتاة. ليلمح بصرها حينئذٍ آثار حروق نالت من يد الفتاة وتفرقت بذراعها، فيثير الأمر الغرابة في نفس العجوز، فتهم بسؤالها:

- "ما الذي قد أصابك يا بنيتي؟".

لم تستطع العجوز أن تولي بوجهها عن يد الفتاة لتدرك (أوفيليا) مقصدها، فتجيبها بنفسٍ تحمل الكثير من الأسى والحزن:

- "لم تكن سيدة المنزل التي خدمتها في السابق.. رحيمة بي، فكانت تلك هي وسيلتها الدائمة في إزاحة الغضب عن كاهلها نحو أي فعلة لا ترضيها".

ثم عادت للحديث بنبرة ساخرة:

- "أو بالأحرى نحو أي أمرٍ في المنزل، يُسكن الغضب بداخلها على وجه العموم".

قبضت العجوز على يد (أوفيليا) وقد اعتراها الحزن مما قد سمعته للتو، لتنظر الفتاة أمامها في صمت، بعينين يحاولان إزاحة تلك الذكريات التي جالت بخاطرها، وأباح بها لسانها للتو.

صعدت الاثنتان إلى ردهة الطابق العلوي لتذهبا صوب غرفة السيدة العجوز، كانت (أوفيليا) دائمة النظر إلى وجه سيدتها الهادئ ذي ملامح الأمومة، وقد أخذت السيدة تشرح لها في تروٍ ما يحتويه هذا الطابق من غرف وما يكمن بأسفله، وما أن وصلت العجوز إلى غرفتها حتى ساعدتها الخادمة على إراحة ظهرها فوق الفراش، لتجلس بجوارها وهي لا تزال منصبة النظر إلى سيدتها الجديدة تتأمل ملامحها، فتأتي الأخيرة بابتسامة هادئة وهي تسألها مازحة:

- "لماذا تطيلين النظر إليّ هكذا يا عزيزتي؟".

فأجابتها (أوفيليا) وهي تتملى النظر نحو وجهها:

- "لم أبلغ من العمر ما يكفي لتذكر وجه أمي الراحلة، لتبقى ذكريات ضبابية لملامح وجهها الحنون، ولسببٍ أجهله.. أنت تذكريني بها".

ربتت العجوز على كتف الفتاة في حنان، لتقوم (أوفيليا) سريعًا من مجلسها نحو إحدى المفارش وتدثر سيدتها به، وتهم بالتحرك للخارج لتغلق الباب بحركة خافتة وابتسامة هانئة لم تفارق وجهها، وقد سعدت بكونها أصبحت خادمة لتلك الأسرة.

وبمُضي الأيام عاد المنزل لرتابته المعتادة التي تخلو من الزائرين، ليأتي مساء يوم ارتعدت فيه أوصال الباب فور أن باغتته طرقات عاجلة تُنبئ بالخطر، هرولت (أوفيليا) نحو الباب بنفسٍ ترهب لقاء زائره الغامض، لتفتح باب المنزل وتُبصر شابًا يناهز عمر سيدها الشاب، وقد بدت على وجهه ملامح الفزع، تتسارع أنفاسه داخل صدره وهو يهم بالحديث طالبًا لقاء (جيوفاني) على الفور، فالتفتت الخادمة إلى المعمل وهي تنادي على سيدها بصوتٍ بلغ القلق به أشده، ليهرع تجاهها (جيوفاني) على الفور فيجد من أمامه صديق دراسته المقرب (أندرسون/ Anderson).

نظر (جيوفاني) إلى صديقه الفزِع.. متحدثًا إليه في قلق جمّ:

- "(أندرسون)! .. ما الأمر؟".

حاول صديقه ابتلاع لعابه من وسط تخاطفات أنفاسه محدثًا إياه:

- "لقد حدث أمرٌ جليّ.. أحتاج لمجيئك معي في الحال".

أومأ (جيوفاني) برأسه مجيبًا ثم عاد للداخل في عُجالة ليبلغ عمه بوجوب رحيله، فيأتي مسرعًا إلى صديقه ويتحركان نحو العربة التي أتى بها (أندرسون) ويصعدان على الفور دون توانٍ، لطم سائقها بسرجه في قسوة على ظهر جواده، فانطلقت مُسرعة تسابق الرياح تجاه وجهتهما الغامضة.

تراقصت العربة في طريقها المُسرع نحو وجهتها، كان (جيوفاني) جالسًا في مواجهة صديقه الذي كان يتأمل النافذة التي تلاحقت رؤية الأشجار المتتالية بها بوجه فزع وفِيهِ عازف عن الحديث، ليحدثه (جيوفاني) بعد ذلك سائلًا إياه وقد اجتاح الفضول عقله:

- "إلى أين نحن ذاهبان؟".

مرّت الثواني.. دون أن يجب صديقه عن سؤاله، ليتكئ (جيوفاني) للأمام ويعيد السؤال على مسامع رفيقه بنبرة حازمة.

أحنى (أندرسون) حينئذٍ جبينه ليهم بالتحدث في مرارة حزنٍ:

- "ليتنا ما أقدمنا على فعلتنا هذه".

ثم عاد للحديث وقد أوشك صوته على البكاء:

- "لقد أخبرتهم بسوء عاقبة فعلتنا ولم يصغوا إليّ".

التزم (جيوفاني) الصمت في توجس حينئذٍ دون أن يفهم مغزى الحديث المُبهم لصديقه، فاستند برأسه للخلف، بينما لم تبارح عيناه موضع الأخير، ليعزف في النهاية عن إعادة سؤال يعلم بأنه ليس له من طائل.

مرّ وقت ليس بالكثير لتبطئ العربة من حركتها، وتقف بقُرابة كوخٍ خشبي كبير، يقف شامخًا لا تؤنس وحدته سوى بحيرة صغيرة ينعكس ضوء القمر على سطحها، ترجّل (أندرسون) من العربة وهو يصطحب أحد المصابيح من الداخل؛ لينيره ويهم بتقدم الطريق، وما أن ترجل (جيوفاني) من العربة حتى علم على الفور بماهية هذا المكان، كان ذلك هو الكوخ الصيفي لأسرة أحد أصدقائهما الأثرياء، وقد اعتادوا في سنوات دراستهم السابقة على المجيء سويًا لهذا المكان؛ لينتفعوا من عزلته وينكبوا على دراستهم.

حدّث (جيوفاني) صديقه وهو ينظر من حوله، بينما يقتربان من الكوخ بخطاهم:

- "لماذا أتيت بي إلي هنا؟".

حينها بدأ (أندرسون) بالحديث دون التمهل في خطاه، والقلق يسترعيه:

- "لقد أثار اكتشاف العالِم (لويجي) الطموح البالغ في نفوسنا، لتُقدم أيدينا على ما لم نتوقع إحرازه يومًا".

توقفت خُطى (جيوفاني) بغتة فور سماعه لحديث صديقه، لينظر نحوه في صمتٍ وقد علا وجهه التوجس فيما هو قادم، فيقف (أندرسون) هو الآخر ويقترب منه مكملًا:

- "لقد شرعنا منذ أشهر قريبة في إجراء تجاربنا الخاصة، مستعينين بنظرية عمك وما توصل إليه، وقد أسفرت إحدى تجاربنا في نهاية الأمر عن سريان الطاقة الكهربائية بشحنات محسوبة، إلى

نجاح موضع التجربة الأخيرة لنا في الحركة والفاعلية، لتعود به الحياة مرة أخرى".

ثم تقدم بخطاه أكثر، ليقارب وجه (جيوفاني) محاولًا تبرير ما هو قادم من حديث له.

- "حينها بات طموحنا يصبو لقفزة علمية، لم نؤتِ لها من حسبان".

ليصمت لثوان، وتتردد الكلمات في حلقه مكملًا:

- "لقد تدبر لنا أحد كفنة الموتى إحضار جثمان أحد المتوفين للقيام بتجربتنا التالية.. وقد كانت..".

أتى على الفور صُراخ مُفزع من داخل الكوخ، تنافرت الطيور لتهجر أشجارها محلقةً نحو السماء هربًا من دويه الصاخب، فالتفت الاثنان نحو الكوخ لتُسارع أقدامهما بالركض نحوه، فيقاربان بابه بأرواحٍ جزِعة، حينها تباطأت خطى (أندرسون) وكأنه يخشى التقدم أكثر من ذلك، ليختطف (جيوفاني) المصباح من يده ويُبادر بالتقدم.

دفع (جيوفاني) الباب الذي تثاقل في حركته مُصدرًا صريرًا قويًا، فزاد من قوة دفعه أكثر حتى استطاع الدخول، ليتبعه رفيقه الغارق في خوفه، علت يده بالمصباح في محاولة لإنارة المكان وكشف حِلكة الظلام التي أحاطت بهما، لينفر منخاره حينئذٍ إثر استنشاقه لرائحة لحم عفِن تُعبئ المكان.

توهج ضوء المصباح من حوله كاشفًا الأثاث المُبعثر بأرجاء الكوخ وقد تهشم غالبيته، بينما انقلب ما تبقى سليما منه رأسًا على

عقب.. ليبدو جليًا لـ (جيوفاني) بأن صراع ضارٍ قد وقع هنا مؤخرًا، فالتفتَ بنظره لصديقه الذي تحسس الخطى من خلفه، وقد أشار بيدٍ مرتجفة نحو السُلم الخشبي المؤدي للطابق الآخر، ذلك السُلم التي تقبع بجانب درجاته الأخيرة، الغرفة التي اعتادوا إقامة تجاربهم الطبية بها.

أتى أنينٌ واهن إثر صعود (جيوفاني) بحركةٍ مُتباطئةٍ فوق درجاتِ السلم البالية، ليكشف ضوء مصباحه أمتاره التالية، فيتجمد جسده عن الحركة بعد عدة خطوات من تقدمه، وقد رأى ما لم يكن ليتوقعه.

لاح له حينها ظهور ذراع هزيلة، امتدت من داخل الغرفة المجاورة، لتتهاوى بعد ذلك تجاه الأرض بقبالة خطوات من أمامه، فتملك الخوف من قلبه وهو ينظر إلى شحوب الموت بها، ليرتعد بصره لظهور اليد الأخرى من الداخل وهي تتشبث بالأرض، فتدفع بجسد صاحبها للظهور في النهاية.

تراجعت خطى الشاب في حذر وهو يُبصر رأس رجل عجوز، تفشت العروق الزرقاء في وجهه المُتيبس، يُجاهد التحرك متشبثًا بيديه في الأرض، ليتسع حينها فم العجوز ويأتي من حنجرته صوت صُراخ دون دوّي له.. فتتسع عيناه غضبًا لعجزه.. وكأنه لا يدري ما الذي حلَّ به بعد موت دام طويلًا.

أثار وهج ضوء المصباح نحو وجهه الفضول، لتنزعج عيناه ويميل برأسه جانبًا صوب (جيوفاني) وقد أدرك وجوده، فتراجع الأخير

بقدميه للخلف في ترقب فزِع، وقد علم أن من يقبع أمام ناظريه هو ما قد جنته يد رفاقه في محاولتهم الأخيرة.

بدأت ذراعا العجوز في جذبه للأمام ليبرز بقية جسده خارج الغرفة، فانتفضت روح (جيوفاني) داخل أضلعه وقد أبصر افتقاد الرجل للجزء السُفلي، ليبدأ الجثمان الذي أشبعه الموت في الزحف على درجات السُلم متجهًا صوبه، فانزاح بيديه للأسفل، ومن خلفه تلطخت السلالم بآثار دماء ما تبقى له من جسد، ليعجز الشاب حينئذٍ عن التحرك وقد شلّ الخوف قدميه كُليًا.

أجبر عقل (جيوفاني) قدميه المرتجفة على التراجع دون أن يلتفت للوراء هاربًا، حتى لامست قدماه موضع الأرض في النهاية، ليؤتي تراجع خطاه برؤية صديقه (أندرسون) يستند بجسده نحو إحدى الجدران من جانبه بفمٍ مطبق، بينما تعصبت عيناه براحتي يديه في خوفٍ، وقد أطاحت أنفاسه الفزعة بصدره دون أن يقوى على تهدئة روعها.

علت حشرجة غاضبة من فم العائد من الموت نحو الشاب وهو ينزلق للأسفل، حتى ارتطم نصفه المبتور بالأرض، ليرفع من أحد يديه في الهواء تجاه (جيوفاني) في غضب، بينما جاهد لإكمال زحفه بالأخرى محاولًا الوصول إليه، فأكمل (جيوفاني) من تراجع خطاه تباعًا، ليتعثر بغتةً ويُطاح المصباح من يده فيسقط على الفور، وترتطم مؤخرة رأسه بالأرض من خلفه.

أقبض الألم على جفنيه حينئذٍ، وقد التفت يمينًا برأسه محاولًا

تدارك الألم الذي لحق به، لتتسع مقلتاه رعبًا وهو يرى السبب وراء تعثره.

كانت جثة أحد أصدقائه مفترشة الأرض من جانبه شاخصة

البصر نحوه، وقد أذهب الموت بريق عينيها المفارقتين للحياة، احتبس الصـراخ في حنجرته وهو يرى جثة صديقه الآخر صاحب ذلك الكوخ، وقد لاحقته عاقبة شرور أفعاله في النهاية، لينشغل (جيوفاني) ببصره نحو جثة صديقه لثوانٍ قبل أن يفيق من صدمته، فور أن قبضت الجثة النابضة بالحياة على قصبة قدمه.

حينها اندفع برأسه للأمام بجسدٍ شلّ الخوف حركته، يترقبه بعينين ترهبان لقاء الموت دون حُسبان له، ليجذب العائد من الموت ما تبقى من جسده ويبدأ في اعتلاء جسد الشاب العاجز فارجًا فيهِ الذي ترنح الفك السفلي به جانبًا، مكملًا أنين عويله الغاضب، ليُقارب الوصول إلى وجه (جيوفاني) الذي أغمض عينيه مستسلمًا لما هو آتٍ من وعيد.

ثوانٍ مرت من الظلام المُطبق على عيني (جيوفاني) منتظرًا مصيره القادم، لحظات كانت كافية لئلا يتأخر الموت عن الإيفاء بوعده له.. لتمر لحظات من ترقبه في عقل الشاب دون حضوره، وقد خف صدره بعد ذلك من حِمل من كان يعلوه منذ لحظات قليلة، فيصفى توتر عقله رويدًا ليسمح لأُذنيه بالإصغاء لصوت ضحكاتٍ خافتة أتت من يمينه.

التفت برأسه ليمينه نحو جثمان صديقه ليجده لا زال محملقًا تجاهه، بينما يُجاهد فمه عدم افتضاح أمره، ليبوء مسعاه بالفشل بعد ذلك، فيُغلق عينيه وتعلو ضحكاته الصاخبة أرجاء المكان، فالتفت (جيوفاني) سريعًا إلى جانبه الآخر، ليجد من ابتغى إزهاق روحه منذ لحظات قليلة ينظر نحوه بابتسامة ساخرة وجسد يفترش الأرض

في سلام.

استند (جيوفاني) بيديه على الأرض، لينكفئ للأمام محاولًا إدراك ما يجري من حوله، فالتفت سريعًا نحو موضع صديقه الآخر (أندرسون) ليجده لا زال مُغمض العينين، بينما يرتج صدره بضحكات خافتة يحاول جاهدًا إخفاءها.

نهض صديقه الآخر مُصطنِع الموت من جثوته وهو يُكمل ضحكاته الساخرة، لكي يُفاجأ (جيوفاني) بعد ذلك بظهور صديقين آخرين لهم من الخفاء، وهما يترنحان من نوبة ضحك هيستيرية انتابتهما مما كانا يراقبانه طوال الوقت، فينهض (جيوفاني) مُشتت النظر بين رفاقه وقد بدأ يُدرك أمر خداعهم له، ليتوجه البقية إليه ويغرقوا أُذنيه بصخب ضحكاتهم المستهزئة، فيتوجه أحدهم له بالحديث:

- "لم نتوقع أن تنطلي عليك تلك الخُدعة حتى النهاية".

ليُكمل آخر وهو يجاهد للحديث من وسط ضحكاته:

- "ليتك رأيت النظرة التي كانت على وجهك، والرجل يهم باعتلائك".

نهض حينها صديقهم (أندرسون) من مكانه ليتجه نحو الرجل ذي الجسد المبتور، ليشير إليه وهو ينظر نحو (جيوفاني) مكملًا:

- "ألا تُميّز هذا العجوز التعِس؟ إنه ذلك الشحاذ الذي اعتاد المجيء إلى جامعتنا، وطالما قد أزعجنا بتوسلاته".

ثم عاد للحديث ضاحكًا:

- "لطالما أرّق مسامعنا بصرير زحف عجلات طاولته التي يقتادها بما تبقى من جسده.. لقد تطلب الأمر منا إضافة بعض الخدع البسيطة لنجد لنصفه الباقي منفعة أخيرة في النهاية".

حينها نظر الشحاذ إلى (جيوفاني) وهو يستند براحتي يديه على الأرض، وقد ارتسم على وجهه ابتسامة بلهاء، ليُكمل (أندرسون) وهو يضع يده على كتف صديقهم المخدوع:

- "لقد اشتقنا لرؤيتك منذ وقت طويل.. لهذا قررنا ممازحتك والقيام بـ...".

أطبق (أندرسون) حينها فمه عن الحديث على الفور، وقد زاغ بصره نحو البُقعة المبتلة في سروال صديقهم (جيوفاني) التي عجزت مثانته منذ دقائق عن إحجامها، لينضح ماؤها من الخوف الذي لحق به.

التزم الرفاق الصمت وهم يتبادلون النظرات القلقة لما قد أصاب رفيقهم، بينما وقف (جيوفاني) يتأمل نظراتهم المُشفقة نحوه؛ فيندفع للخارج مُغادرًا المكان دون حديث، ليُسارع صديقة (أندرسون) للحاق به.

حاول (أندرسون) مُجارات خُطى صديقه المُسرعة للحاق به إلى العربة، دون القُدرة على تبرير فعلتهم، ليصعد (جيوفاني) ويجلس بنفسٍ ملأها الخزي وقد اغرورقت عيناه بالدمع دون استطاعةٍ منه عن ردعها، حينها صعد (أندرسون) للعربة ليجلس جواره، لتبدأ العربة بالتحرك عائدة من حيث أتت.

لم يدم الصمت طويلًا داخل العربة، حتى عاود (أندرسون) التبرير لصديقه قائلًا:

- "لم نقصد إخافتك لهذه الدرجة يا صديقي، كل ما في الأمر أننا قد افتقدنا لقاءك منذ تخرجنا لانشغالك، فقررنا ملاقاتك.. ليتزين مسعانا بمزحة سخيفة ليس إلا".

ثم عاد ليُكمل تبريراته بتوترٍ ظاهرٍ في صوته، فيرفع (جيوفاني) يده تجاهه ويُبتر الكلمات في حلقه آمرًا إياه بالتزام الصمت.

لتتوه عينا (جيوفاني) في ظُلمة جفونه، وقد أراح رأسه ليستند للخلف مهمهًا:

- "فقط.. أعدني للمنزل رجاءً".

* * *

الفصل السادس

(الطموح)

دقت عقارب الساعة معُلنةً قدوم الرابعة عصرًا، لتجتمع العائلة على مائدة الطعام استعدادًا لموعد الغداء، تحركت (أوفيليا) في تمهل وهي تحمل إناءً ساخنًا لتضعه على الطاولة المُفترشة بالطعام، وتُسارع في العودة لإحضار البقية.

أمسكت السيدة العجوز بقطعة من اللحم لتُزيح يدها المُمسكة بها لأسفل الطاولة، فيقم (هيكتور) من جوارها بقطم الطعام من يدها في نهم، بينما جلس (لويجي) على مقعده، وقد تواجدت إحدى الصُحف المطوية جانب الطاولة من أمامه، أخذ يتلذذ بدخان غليونه حتى يأتي الحساء الخاص به، ليعُم الصفاء والهدوء بعد ذلك في الأجواء دون أن ينال الطبيب الشاب نصيبًا منه.

لم يكن الهدوء يعرف لعقل (جيوفاني) من طريق منذ فترة طويلة، فعلى الرغم من مرور أسابيع على واقعة خِداع أصدقائه له بمزحتهم السخيفة، إلا أن ذلك الموقف لم يُبارح عقل ذلك الشاب مُنذها، كانت رؤيته لذلك الرجل المُفترض موته قد طرحت فرضية لطالما جالت بعقله الطَموح منذ الاكتشاف العلمي الأخير لعمه.

ظل شارد الذهن، يجلس على الطاولة مُنشغلًا في مطالعة الإناء من أمامه في صمت دون أن تمس يده الطعام، فيمر وقت ليس بالكثير من سكونه ويلتفت نحو عمه، ليبوح بما يجول بخاطره دون لحظة تردد.

- "هل يتمكن العلم يومًا من إعادة الوظائف الحيوية للموتى، فتعود الحياة إلى أجسادهم ويشاركوا المحيا مع سائر البشر مرة أخرى؟".

باغتت جُرأة حديث الشاب وجوه من حوله، لتنظر والدته إليه في ذهول وقد أخرسها الصمت، بينما عزف عمه عن الحديث لثوانٍ، ليعود لاستنشاق الأنفاس الأخيرة لغليونه قبل أن يجيبه:

- "إن العلِم لا يعرف المستحيل، ولكن تذكر دائمًا أنه يتوجب حساب الخطى جيدًا قبل الوصول إلى أي مسعى يُرجىَ".

ثم دفع (لويجي) بصحنٍ شاغرٍ للإمام قليلًا، فأمسكت (أوفيليا) بمغرفة خشبية وبدأت في ملء الحساء به، ليقبض (لويجي) على غُليونه ويطرق طرفه داخل منفضة السجائر، فيلفظ تبغه المُتهالك بها، ليعود بعد ذلك ويُكمِل الحديث بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة حاول جاهدًا إخفاءها:

- "لقد راسلتُ الأكاديمية الملكية للعلوم بشأن طلب الحصول على طرف بشريّ لاستكمال التجارب التالية".

ثم عاد ليُمسك بغليونه ويفيض بعض التبغ بداخله، فيشعله من جديد.. مُعاودًا الحديث:

- "سوف يتطلب الأمر بضعة أيام أخرى حتى يصل الطرد إلينا، وقريبًا سوف نعرف الإجابة على سؤالك هذا".

تهللت أسارير (جيوفاني) حينها وقد أتت إجابة عمه على سؤاله لتوقد الحماسة والشغف بداخله، فيبدأ بتناول طعامه ببالٍ هانئ،

ومن وسط تخاطفات يده للطعام، رفع هامته نحو (أوفيليا) ليلحظ أمرًا غير معتادٍ من خادمتهم.

أبطأت (أوفيليا) من حركة يدها نحو الصحن الذي تملؤه لسيدها الكبير، وقد لمعت عيناها ببريق تقدير وإعجاب بالغ، كانت تتأمله وكأنها ترى به ما لم تعتَده من خُطى للبشر، فعلى الرغم من كونها تعمل خادمة في هذا المنزل، إلا أنه يبدو أن حُمى العلم قد أصابتها هي الأخرى، فأصبحت تشغفه مثل شأن سائر تلك العائلة.

تداركت الخادمة أمرها سريعًا لتُعاود إكمال عملها، وقد أشاحت بوجهها بعيدًا عن (لويجي) فور أن أدركت فضح الشاب لنظراتها، لتتحرك عائدة إلى المطبخ، ليسرق (جيوفاني) النظر نحو عمه فيجده يختلس نظرات جانبية من وسط دخان غليونه، متابعًا عودة خطى الخادمة المتمايلة إلى الداخل.

تعجب حينها من فعلِة عمه التي بات يلاحظها به في الآونة الأخيرة، خاصة وأن عمه قد اعتاد في السابق مُطالعة صحيفته أثناء تناوله للغداء، وسرعان ما تغير الحال منذ أن قدمت تلك الخادمة إلى المنزل، لتظل صحيفته مطوّية على المائدة في أغلب الأوقات.. فيبدو في نهاية الأمر أن عمه قد وجد أمرًا آخر يستحق المُطالعة.

وبعد عناء يومٍ طويل أتى الليل ليُسكن النُعاس في الجفون فينعم (جيوفاني) بنوم هادئ، الأمر الذي لم يدم طويلًا حتى تبدد من عقله صفو نومه، فيستيقظ بعد سويعات متأففًا في حنق لينظر نحو مصدر الصوت المتسبب في إفاقته، كان (هيكتور) حينها يتقافز

بقوائمه في الهواء وهو يلهو بإحدى الكرات المطاطية، يقبض عليها بفكه ثم يطيحها لتعود وترتطم بالأرض مجددًا.

نهض الشاب من فراشه ليقبض على الكرة ويضعها في أحد أدراج المكتب، وينظر إلى كلبه الذي تدلى لسانه في سعادة لاستيقاظ سيده منتظرًا استكمال لهوه، فيبوء توقعه بالفشل وقد ربت صاحبه على رأسه، ثم عاود فراشه استعدادًا للنوم مجددًا.

تقلب جانبًا في الفراش بعد ذلك المرة تلو الأخرى، لتعجز محاولاته المُستميتة للعودة للنوم ويودع النُعاس جفنيه، حينها أزفر في غضب وهو يلعن ما قد ابتلي به من سمعٍ مُرهف يؤرق أحلام ليله، فمنذ أن كان صغيرًا كانت أبسط الأصوات سببًا لاستيقاظه من سبات نومه.

نهض مجددًا بنفس عكِرة وقد أطاح بملحفته جانبًا، لينظر نحو (هيكتور) بعينين تلومانه على فعلته، فجثى الكلب على الأرض مُنكّس الرأس زائغ البصر، وقد استشعر حنق صاحبه من فعلة لم يعلم لها من عاقبة.

تحرك (جيوفاني) للخارج نحو الحجرة المجاورة لغرفته ليطمئن على والدته، ليجد ضوء القمر يطل بضيائه على فراشها، فاقترب من فراشها بعد ذلك، وقد أمسك بغطائها الذي سقط غالبيته نحو الأرض، ليعاود تدثيرها بحنو، فاستشعرت والدته النائمة وجوده لتمسك بيده وتقاربها من صدرها بعينين يغلبُهما النعاس، فتمدد على الفراش بجوارها ناظرًا إلى عينيها الناعستين، ليقارب جسدها بعد

ذلك ويستند بجبينه على رأسها، فيغمض عينيه في سلام وهو يشتم رائحة رأسها الطيب. أخذت والدته تُملّس على وجنته لعدة مرات، حتى تباطأت لمساتها لتتوقف بعد ذلك مُعلنة عودتها للنوم مرة أخرى.

نهض حينها من مرقده في تروٍ خِشية إيقاظها مجددًا، ليتحرك للخارج عائدًا من حيثما أتى، وقبل أن يدلف لغرفته عازمًا على إكراه نفسه على النوم، لاح لبصره أمرٌ تسبب في جذب انتباهه نحو غرفة عمه التي تقبع في منتصف الردهة.

نظر (جيوفاني) حينها نحو الغرفة وقد ألقى بابها المتوارب ببصيص من الضوء الخافت. لم يعتد الشاب أن يستيقظ عمه حتى ذلك الوقت المتأخر من الليل، فتوجه إلى الغرفة لمعرفة سبب استيقاظه حتى الآن، وما أن قاربت قدماه الوصول للباب، حتى وجد (أوفيليا) تنساب بخطاها للخروج من الغرفة وهي تُعدِل من هِندامها، ليتوقف (جيوفاني) على الفور قبل أن يصطدم بها.

تلاقت عينا (جيوفاني) الحائرتان بعيني الخادمة، وللمرة الأولى لم تزُغ عيناها عن ملاقاة نظراته لها، وقد استمر في النظر إليها مُتعجبًا من تواجدها بداخل غرفة عمه منذ لحظات قليلة. كانت (أوفيليا) حينها تقف أمامه وقد تخلت أزرار ردائها عن إحكام حيائها، ليباح نهداها العاريان لتحديقات عينيه التي انزاحت نحوهما، فسرعان ما أشاح ببصره عنهما خجلًا، لينظر عبر الباب نحو عمه بالداخل.

شاهد (جيوفاني) حينها عمه يتقلب جانبًا في فراشه الوثير استعدادًا للنوم، فأعاد النظر إلى (أوفيليا) التي ابتسمت تجاهه في دلال، لترفع يداها نحو صدرها وتداعب بأناملها أزرار ردائها في تمهل استعدادًا لغلقه. وقد كان تمهلها هذا كفيلًا بأن يتجرأ بصر الشاب في التحديق إلى صدرها الناعم.

شعر حينها بأن (أوفيليا) تتعمد إتاحة الفرصة له ليتأمل نعيم جسدها الفتي، فاجتاح عقله على الفور شعور شبق لم يعتده كثيرًا، وقد كان شبق بلوغه يندثر دومًا تحت رُكام العلم الذي لم ينشغل ذهنه بسواه قبل ذلك.. ولكن أتت هي الآن لتزيحه وتعود لأحياء ذلك الشعور بداخله من جديد.

التفتت (أوفيليا) جانبًا بابتسامة زينت وجنتيها كعادتها، لتغلق الباب في رفق وتهم بالرحيل بخُطى متمايلة عائدة إلى غرفتها.. حينها تبددت تساؤلات الشاب حول تصرفات عمه الأخيرة.. وقد أدرك الآن أن شغف عمه لم يعد يقتصرعلى العلم فقط.

* * *

مُذكرات مجهول

مذكرتي العزيزة.. أخشى أن تتغير نظرتك لي لما سوف أحدثك به الآن، فاليوم لم أعد نقيًا كما عهدتني سابقًا، اليوم تخلت عني إرادتي الحرة لأصبح عبدًا انصاع للأوامر دون عصيان مني، أكتب لك راجيًا بألا تُلقي عَليّ بالأحكام المُسبقة دون قبول مبررات مني، فأنتِ كنتِ ولا زلت أنيسة وحدتي في تلك الأيام الطوال.

أتت ظهيرة اليوم الرابع لي في العمل، كان السجين (فوستر) على موعد مع لقاء المفتش (تشارلز) مجددًا لاستكمال تحقيقاته. لا زال زميلي الآخر غائبًا عن العمل، ولا زلت حاضرًا لكي أُكمل عمله كخادم مطيع، وبصدور الأمر بإحضار السجين، عبثت في جيب معطفي في تهاون، متمنيًا عِصيان الأمر دون القوى على التنفيذ، فدلفت إلى الزنزانة لأصطحب السجين، كان (فوستر) حينها منزويًا في أحد الأركان شاردًا في مصيبته، تأملت حزن نظراته لثوانٍ قبل أن يعلو صوتي لمناداته، فلا يتحرك له من ساكن.

ارتديت قناع جمودي المُعتاد، لأتوجه نحوه وأركل حذائي بقدمه، فيزداد انزواؤه بالجدار كجروٍ شريد يخشى أذية البشر له، تأففت وأنا أقبض بيدي عليه لينهض لمصاحبتي للخارج. لم ينبس السجين ببنت شفة من جواري وأنا أقوده للممر المؤدي لغرفة المفتش، استمر الحال لخطوات قليلة حتى تنامى إلى مسامعنا قرقعة نعليّ المفتش المعتادة من الداخل، فتراجعت خُطى

(فوستر) حينئذٍ، ليحتمي بي كطفل صغير يخشى ما هو مُقبل عليه من عِقاب.. وما كنت لألومه على فعلته، ففي المرة السابقة كاد أن يُلاقي الموت على يد صاحب تلك النِعال المُقرقعة.

وصلت إلى الغرفة ومن ورائي السجين المرتعد، فأديت التحية العسكرية المُعتادة لأقف منتظرًا الأوامر، كان المفتش (تشارلز) يقف بصحبة اثنين من معاونيه، تتطاير الأوامر من شفتيه فتومئ الرؤوس المُنصاعة له، ليُنادي أحدهما على السجين، فيرفض الخضوع للنداء محتميًا بي.

نظرة واحدة من المفتش تجاهي كانت كفيلة بأن أتبرأ منه، لأقوم بدفع خطاه للأمام، تلك الخطى التي لم تدم لثوانٍ حتى عُرقلت ليسقط صاحبها أرضًا، فتهافتت النعال حينئذٍ لدك جسده دكًا. ركلات قوية تفرّق بطشها الغاشم فوق جسد السجين، ليدعس أحدهما بوجهه فيحتضن عُفارة الأرض من أسفله، لتكُف النعال بعد ذلك عن مسعاها مُنصاعة لأوامر المفتش بالتوقف.

رفع الحارسان السجين من ذراعيه وهما يجاهدان اتزان وقفة جسده العاجز، وقد تقاطرت دماؤه اللزجة من شفته السُفلى لتسيل معها تهشُمات أسنانه خارج فمه، وقد بات السجين الآن مُجهزًا للتحقيق مرة أخرى، اقترب المفتش للحديث بجمود وجهه الذي لا يبارحه سائلًا السجين عن سبب قيامه بقتل زوجته وابنته، متجاهلًا نظرات (فوستر) التي تُقارب غياب الوعي، ليكمل حديثه حول وجوب السجين بالاعتراف بما اقترفت يداه من إثم، مقسمًا بألا يُرد لأمره مطلبًا.

رفع السجين رأسه في هوان، بينما تباينت الكلمات من فمه الدامي بإصراره السابق.. "أنا لم أقتل أحدًا".

تراجع (تشارلز) حينئذٍ للخلف؛ لتمضي الأيدي والنِعال ببطشها الغاشم مجددًا، حاول السجين بما تبقى له من قوى حماية وجهه، بينما تطايرت ذراعاه من زِحام الرطمات فتعجز عن حمايته.. أصاب الفزع قلبي وقتها، عندما أدركت أنني على وشك رؤية السجين جثة هامدة إن استمر الأمر على ذلك الحال، لم أستطع صبرًا حينئذٍ للمغادرة، فانطلقت قدماي لمبارحة الغرفة سريعًا، قاصدًا الملاذ الأخير لنجدة هذا السجين من الموت المُحقق.

تسارعت خُطاي في الطُرقات المُتلاحقة للسجن حتى وصلت لمقصدي، دفعت حينها باب غرفة القس (بِرهام) دون سابق استئذان، لأندفع إلى مكتبه لاهثًا بالحديث عن جُرم ما يحدث الآن من تعذيب لهذا السجين على يد المفتش ومعاونيه، استمر القس في الإنصات لحديثي المتوسِل له للحظات قبل أن يهمَّ بالوقوف من مجلسه، ويصاحب خُطاي المسرعة نحو غرفة التحقيق ليدلف للداخل سريعًا، فيرى ما يلحق بالسجين.

توقفت النعال الباطشة عن إلحاق عذابها فور قدومه، ليتحرك القس نحو المفتش دون أن يسترع شاغلًا للجسد المطروح أرضًا بجواره، ليتوجه للمفتش بحديثه.. "ألم يعترف السجين بفعلته بعد؟".

يا لهول ما قد أدركه عقلي للتو.. لم يكن ذلك القس هو الآخر يعبأ

لأمر تلك الروح الموشِكة على الفراق، كان جمود نظرات (تشارلز) له هي الإجابة عن ذلك السؤال؛ لينكفئ القس (بِرهام) على ركبتيه ويجذب بقبضته رأس (فوستر)، وهو يحدثه عن سابق قراءته لملف التحقيق الخاص به، فيعلو الغضب في نبرته عن كون زوجة السجين تنحدر من عائلة كاثوليكية، تلك الأرواح المتدينة والمُفارقة للدنيا والتي أزهقتها يداه البخِسة.

لم يكن وعي (فوستر) حينها كاف بإدراكه لكلمات القس من جانبه، والذي أكمل سخريته من رفض ذلك السجين للاعتراف والبوح بإثمه ابتغاء غُفرانه، فأخبره وقتئذ أن الرب لا يبغي الاستماع لأمثاله من المفسدين في الأرض من الأصل، مؤكدًا على أمرٍ أخير.. بأنه لن يرى يومًا هانئًا طيلة ما تبقى من أيامه المعدودة في السجن، حتى تُلاقي رقبته حبل الحكم الأخير.

دفع القس برأس (فوستر) ليطرحها أرضًا، ويهِب من جثوته مجددًا متجهًا للخارج، لم أكن لأصدق الأمر لو لم أره بعينيّ، فاندفعت للخارج مجددًا دون وعي مني للحاق به على الفور، كان القس (بِرهام) يتحرك بخُطى هادئة وكأنه لم يشهد شناعة ما حدث بالداخل، يمشي مختالًا بزيُه الكنسيّ الذي يُضفي الهيبة والرهبة في قلوب عُصاة الرب قبل تُقاتِه.

اندفعت مُقاربًا إياه، بينما تطايرت الكلمات من فمي نحوه رغمًا عني وقد تشتت ذهني، فلم أعد أعلم سبيلًا آخر لنجاة ذلك السجين، لم أتدارك نفسي وأنا أقبض على يده من جانبي لأوقف مُضيّه، فينزاح كم يده رغمًا عنه، فيرمقني منزعجًا في غضب وقد

فاض به الكيل من تمردي الراعن، لينكشف لعيني فور انزياح كمه عن وشم صغير بمنبت قصبة ذراعه.. كان ذلك الوشم لسحابة وليدة تُطال يدٌ منها باسطة أناملها نحو الأسفل.

أفقت من تأملي لذلك الوشم فور إطاحة التهديدات من فم القس نحوي، مُعللًا بخيط رفيع من صبره النافذ لي في القريب، والمتمثل في حداثة عملي هنا، ليأتي آمر السجن بأمر واحد لا راد له، أن أعود للداخل لكي أُعاون الحارسين على إحقاق العدالة التي يراها آمري هذا السجن.

مذكرتي العزيزة.. كنت نقيًا دومًا، وها أنا مُكره على إثم لم أرِده يومًا.

الفصل السابع

(للموت إغراء)

بات الأمل وشيكًا، وما بدأ بخفوق أطراف ضفدع نافق قد تخطى ذلك الأمر بمراحل كثيرة، وبانقضاء الوقت أتى اليوم المنتظر الذي استقبل فيه العالِم (لويجي) الطرد الخاص بالأكاديمية العلمية، ليعكف طيلة النهار بصحبة رفيقيه داخل معمله، مرّ من الوقت الكثير دون أن ينشغل أحد الثلاثة بالخروج للحظة واحدة، كان الجميع منكبين على تجربتهم العلمية، ولكن كان يقبع بخارج هذا المعمل من هو أشد شغفًا بالأمر.

فمنذ الوهلة الأولى التي صاحبت قدوم ذلك الطرد للمنزل، كانت (أوفيليا) تتوق لمعرفة ما يحدث بالداخل، تتحرك ذهابًا وإيابًا في البهو بينما يعصف الترقب بوجدانها، لتُقدم على خطوتها التالية بنفس مطمئنة، فقد كان سيدها في بداية عملها دائم التحفظ على دلوفها إلى المعمل أثناء انشغاله في القيام بتجاربه، ولكن كان ذلك الشأن على وشك التغيُر، فيبدو أن جسدها قد بات الآن بمثابة تذكرة السماح لها، إن شاءت التدخل يومًا فيما لا يعنيها.

لم تستطع الخادمة تحمُل الفضول بداخلها أكثر من ذلك، لتتجه إلى المعمل وتدفع بيدها الباب وتتحرك للداخل، لتجد الرفاق الثلاثة مجتمعين أمام طاولة المعمل يُطالعون مُجريات تجربتهم، فسارعت خطاها الحماسية في التحرك نحوهم لترى ما يفعلونه، ليتسمر جسدها على الفور وتتسع عيناها ذهولًا لما قد رأته.

كان يقف العالِم ورفيقاه مواجهين لطاولة المعمل، وقد تمدد من فوقها ذراع بشرية مبتورة، موصول أطراف أنسجة أعصابها بمجسات صغيرة يسري التيار الكهربائي من خلالها. تأملت الخادمة تلك اليد البشرية التي تملك التحلُل من غالبيتها، وقد ارتعشت أناملها وبدت وكأن عُقلات أناملها تداعب الهواء عبثًا في محاولة منها للتشبث بحياة لم تعد مِلكًا لها.

اجتاح الحماس البالغ عقل الفتاة، لتلتف للجانب الآخر وتقف أمام الطاولة في مواجهتهم، بعينين لا تُزاغان عن المُعجزة التي تراها، فينظر (لويجي) إليها وقد انعكست شُحنات آلته، ليتراقص ضيّ تياراتها فوق ظلال نظارته الطبية الدقيقة.

تأملته (أوفيليا) حينئذٍ بفيه مُدهُش ونظرات إعجاب لم يعهد لها مثيل، شعر وكأنها تنظر نحوه وقد اعتبرته يستحق مكانه الرب في الأرض، لتعلو ابتسامة فخرٍ وزهو على وجهه، يختبئ من ورائهما سعادة بالغة لما يعلمه بما سوف تقدمه الخادمة له ليلًا من تقدير وإعجاب.

وفي ليل ذلك اليوم أفاق (جيوفاني) من نومه الهانئ فور استشعاره لحركة (أوفيليا)، وهي تجذب بيدها مقبض باب غرفته لتُغلقه في هدوء، مثلما اعتادت في الآونة الأخيرة، لم تكن تعلم

حينئذٍ بأن الصرير الخافت الذي يصدره الباب في بادئ انزياحه هو السبب دومًا في استيقاظه، لتتملك اليقظة عقله على الفور، ويُجاهد في إخفاء الابتسامة من وجهه وهو مُغمض العينين مُصطنعًا النوم. فما قد اعتاده من سمعٍ مُرهف في أن يكون سبب نقمته في عدم استقرار نومه، قد بات سببًا لسعادته، فقد أمسى حينها يعلم سبب تلك الفعلة التي كانت تداوم عليها الخادمة قبل أن تذهب لزيارة عمه في غرفته ليلًا لتؤنس وحدته.

وكم من مرات سابقة استيقظ بها إثر أنين ذلك الباب، كان دومًا ينهض من فراشه ويتبعها فور ذهابها لتلك الغرفة، ويدفع بابها في ترو لرؤية ما يحدث بالداخل، كان يعترف في قرارة نفسه دائمًا بحُرمة ما يفعله، ولكن كان شعوره الشبق يتملكه لرؤية جسد (أوفيليا) العاري وهي تتلوى في أحضان عمه، أقوى من أن يُعدله عن مسعاه.

فقد بات يعشق رؤياها وتأمل تفاصيل جسدها المتوهِج، تئن أنفاسه مع تأوهات متعتها، وتتشبع عيناه بلهيب أحضانها، والآن سوف يتاح له رؤيتها مجددًا، متمنيًا قدوم اليوم الذي يأتي وتشعر شفتاه بحرارة جسدها.

بارح (جيوفاني) فراشه حينها في هدوء تام بعد أن أغلقت الخادمة باب غرفته؛ ليفتح الباب بعد لحظات وهو يُحصي في عقله خطواتها المعتادة نحو غرفة عمه، فتحرك يتحسس الخطى حتى وصل إلى الغرفة المنشودة، ليدفع الباب في رفق؛ لتتباين رؤياه من ثنية الباب ويُبصر رفيقة أحلامه.

وقف يتأمل (أوفيليا) وهي تتحرك نحو ذلك الفراش الوثير الذي استلقى فوقه عمه المتلهف للقائها، ابتسمت نحو الرجل في دلال، بينما انسابت يداها إلى فِراشه كأفعى ثائرة، لتهم بالصعود وتعتلي بفخذيها جسد الرجل وهي تتملى النظر إليه، داعبت يداه جسدها المتوهج في لهيب طال شوق إطفائه، فأخذت في التمايل، بينما رفعت هامتها للأعلى وكأن جسدها يتراقص على ترنيمة دفينة عقلها.

زاد ذلك من ثورة عقل (لويجي) لينكفئ للأمام محاولًا احتضانها، فما كان بها سوى أن دفعته لتطرحه نحو الفراش مجددًا، فتُلامس بيداها جفنيه وتُغلقهما في هدوء، فازداد لوع فؤاده ليريح ظهره مستسلمًا لمُجن أفعالها، أكملت النظر نحوه وقد بدأت تتحسس رداءها.

انسابت يدا (أوفيليا) فوق رقبتها بلمسات رقيقة، لتنجرف نحو الرداء من فوق جسدها وهي تتحسسه في هدوء، حتى توقفت يدها عن إحدى جانبيّ ردائها، لتقبض على ما كان يستتر بداخله منذ وقت دخولها للغرفة؛ لترفع بصرها نحو وجه الرجل المتلهف، وترفع يدها عاليًا مُمسكة بخنجر، لم يُبارح الخفاء داخل حقيبتها منذ اليوم الذي أتت فيه إلى المنزل.. وقد حان وقت ظهوره.

قبضت الفتاة على الخِنجر في عزم؛ لتهوي به على صدر الرجل العاري، فتجحظ عيناه من الألم الذي أحاق به وهو ينظر إلى عينيها التي سكنت بها نشوة القتل؛ لتُخرِج الخنجر المُنغمس في صدره

وتتوالى طعناتها الغاشمة نحوه، حاول في بادئ الأمر دفع يدها بعيدًا عنه وهو يصارع الموت، فتتلاحق أنفاسه في خفوت من وسط سُعال يلفظُه فمه الدامي، ولكن سرعان ما تراخت يداه في وهن مستسلمًا للظلام الذي خيم عليه، بينما استمرت طعناتها في مُباغتة صدره دون توقف للحظة واحدة.

لحظات مريرة أمضاها (جيوفاني) في فزع، يقف دون القوى على التحرك وقد شُل عقله مما قد رأه، ليفق عقله من صدمته بعد ذلك ويطيح بالباب، ليركض تجاه (أوفيليا) الجاثمة فوق عمه، فتلتفت إليه فور اقترابه وتضرب جانبًا بخنجرها في الهواء نحوه، فتُسفر إطاحتها عن إصابت ذراعه بجرحٍ غائر أدماه على الفور، ليمسك بيده الأخرى ذراعه متألمًا ويتراجع للوراء في خوف، حينها نهضت الخادمة من فوق جسد الرجل المُفارق للحياة، شاهِرة خنجرها للأعلى وهي منصبة النظر نحوه، وقد قررت استكمال مسعاها بأن يكون هو ضحيتها التالية.

التفت (جيوفاني) سريعًا ليواجه باب الغرفة وهو يهم بالركض مبتعدًا عن القاتلة، بينما أسرعت الأخيرة في ملاحقته على الفور، أخذ الشاب يركض عبر الردهة بقلبٍ يتقافز من الفزع، وأُذنين تسترق السمع لوقع أقدامها المُهرولة من ورائه، فشرع بالنزول من فوق درجات السلم بخطوات أشبه بالوثب، بينما صاحبَت من خلفه وقع خطاها، وقبل أن يصل إلى الدرجات الأخيرة، قفزت الخادمة بجسدها نحوه لتُعيق تقدمه ويرتطم جسديهما، فيُطاحا في الهواء ويسقطا أرضًا.

اعتدل الشاب للخلف ناظرًا نحوها في خوف، بينما أسرعت في اعتلاء جسده وتوجيه خنجرها نحو صدره، فقبض على يدها قبل أن يُلامس سلاحها مُبتغاه، تلاشت حينئذٍ الابتسامة التي لطالما ارتسمت على وجهها، ليحل موضعها عبوس مُقطب الجبين، عازمة على ألا ترد لطعنات خنجرها مطلبًا. استماتت يداه في محاولة إبعاد قبضتها عن إلحاق الأذى به، فيأتي لمسامع أُذنيه حينها قدوم خُطى مُزمجرة، تسارع بالنزول على درجات السُلم.. آملًا في أن تكون السبب في غوثه من مصيره القادم.

دوى صراخ (أوفيليا) في ألم جليّ، فور عقر (هيكتور) لذراعها الأعزل، بينما علت زمجرته وهو يطيح بذراعها يمينًا ويسارًا مطبقًا عليه بفكه، حاولت القاتلة إبعاد يدها عن ذلك الفك الغاشم، بينما أدمت أسنانها من فرط قبض فكيها لكتمان الألم، لتُباعد يدها الأخرى الممسكة بالخنجر عن صدر (جيوفاني) وتميل جانبًا لتباغت (هيكتور) بطعنة غادرة، أسكنتها في جانبه بكل ما أوتي لها من قوة، ليعلو عويله ويترنح جانبًا لخطوات قبل أن يسكُن الأرض، ليُكمل أنينه من ألم ملاقاة خِنجرها، بينما راقب (جيوفاني) أنفاس صديقه بين ضلوعه وهي تتباطأ تدريجيًا حتى هدأت في النهاية لترحل عنه.

اندفعت (أوفيليا) على الفور مرة أخرى نحو صدر الشاب وقد أحكمت كِلا قبضتيها على الخنجر مُشيرةً إياه نحو قلبه، لتنكفئ بجسدها للأمام وتزيد من قوتها، وقد شارف خنجرها مُقاربه موضعه. جحظت عينا (جيوفاني) من الألم فور انغراز منبت الخنجر بصدره ليُغمض عينيه بينما يحاول دفع قوة يديها، وقد باتت ذراعاه

تُقارب الفشل عن ثبات موقفها.

هدأ عزم قبضة القاتلة من فوقه لثوانٍ، لتتساقط الدماء بعد ذلك على وجهه، فيفتح (جيوفاني) جفنيه في توجس تجاهها، فإذا به يجد رأس (أوفيليا) قد مال للأمام ليُقارب ملامسة وجهه، وقد سال منه فيضٌ من الدماء، بينما نظرت الخادمة نحوه بعينين اتسعتا جهلًا تجاه معرفة ما قد لحق بها.

دفع (جيوفاني) بجسدها لتسقط أرضًا من جانبه، لينظر تجاه جثتها الهامدة وقد بدأت الدماء في التدفق من مؤخرة رأسها لتفيض على الأرض، فالتفت حينها إلى جانبه الآخر ليجد والدته تقف مُقبضة بيديها على إحدى التُحف النحاسية التي سالت الدماء اللزجة من أسفلها.. لتقف العجوز بنفس مرتعبة، ترتجف أوصالها رهبةً لما قد اقترفته يداها للتو.

* * *

مُذكرات مجهول

مذكرتي العزيزة.. ها قد مرت أسابيع على عملي هنا، خشيت أن يأتي اليوم الذي أتردد فيه بالبوح لكِ عما بي من أوجاع، بت أشعر بغضبك كلما قصصت عليك ما يحدث في عالمي، فعالمك كأوراقك ناصع البياض تسوده البراءة، بينما عالمي يشوبه عتمة الواقع المرير للحياة الغير عادلة.. تُرى هل عليّ أن أُخضّب صفاء عالمك بظُلمة عالمي؟ أم عليّ أن أكُف يدي عن البوح لك بالمزيد، فتظلين عند حسن ظنك بي، مثلما عهدتني دائمًا في حياتي السابقة، قبل أن أقبع كسجين آخر داخل جدران هذا المكان.

كالعصفور حبيس قفصه يُرفرِف بجناحيه رافضًا لما هو فيه، يضيق صدره وتحتبس أنفاسه داخل قضبانه، يدُس رأسه من بين ثناياها من الحين إلى الآخر أملًا في الظفر ببصيص من نسائم الحرية.. هكذا عهدت (فوستر) في محبسه.

كانت تلك هي أيامه الرتيبة التي يخلو منها بطش المفتش له، أيام طوال عانى بها السجين من التعذيب والإكراه للاعتراف، كان بمثابة دمية يُنفّس بها (تشارلز)عن غضبه، عازمًا في نهاية الأمر على تحطيم عزيمته في الدفع عن جُرمه، مُقسمًا على وقوف السجين في محاكمته، مقراً بفعلته.

لم يكن القدر في مخططه قد اكتفى بوضع المفتش (تشارلز) كبيدق يذيق (فوستر) المرار طيلة أيامه المعدودة قبل محاكمته، ليضع له عقبة أخرى تكاد أن تكون أشد قسوة من الأخير.. عقبة

تُدعى بالسجين (سباستيان فلوك/ Sebastian flock).

كان (سباستيان) وافدًا جديدًا على السجناء داخل تلك الزنزانة، وقد لحق بهم منذ بضعة أيام ماضية، مجرد سارق وضيع أجبرته الأيام على فعِلة السرقة، لم أدرِ سبب تقربه من (فوستر) دون غيره في محبسه، كانا يقضيان أيامهما وراء تلك القضبان الصدئة في صُحبة بعضهما، وللوهلة الأولى ظننت أن القدر قد رأف بحال (فوستر) فأرسل له ونيسًا لوحدته في تلك الليالِ الطوال، ليكن (سباستيان) هو سبب آخر لتنغيص حياة ذلك المسكين، فأتى اليوم الذي أخبره (سباستيان) فيه عما لم يكن يعلمه من قبل، حدثّه حينها عما يحدث داخل السجون تجاه من يُحكم عليهم بالموت داخل أسوارها.

كانت المحكمة العُليا تأمر بإحالة جثث محكومي الإعدام فور وفاتهم للأكاديمية الملكية للعلوم، حيث يتم تقطيع جثامينهم وفصل أطرافهم للتشريح والدراسة من أجل مساعي البحث العلمي، حيث كان القانون يعتبر ذلك بمثابة عقوبة ثانية للمجرمين، ليأتي لـ (فوستر) بعد ذلك هاجس مرير لم يفارقه منذ وقتها، بعد أن علم بأن مثواه الأخير سوف يكون داخل إحدى غرف التشريح.. فكان دومًا يستيقظ فزعًا من نومه، يرتجف جسده من خشية ذلك المصير المُقبل.

واليوم أفقت من غفوتي ليلًا على صُراخ هستيري للسجين (فوستر)، أسرعت لأتلقف مفتاح الزنزانة على الفور وأفتحها، مترقبًا فزع بقية السجناء من صُراخه غير المنقطع، ذهبت للداخل

لأجده منزويًا في ركن محبسه كفأر يخشى الغرق، يرتجف جسده وتشرد عيناه فيما قد رأته، وما أن اقتربت منه لمعرفة ما أصابه حتى أباحت رجفة فيهِ بما أصابه، وقد أشرد وانطلق لسانه يقُص ما قد أرق نومه.

أفاق (فوستر) من غفوة نومه دون استطاعة منه لفتح جفنيه، وقد أحاطته الظُلمة من كل جانب عاجزًا عن الحركة، وكأن لا سلطان له على جسده بعد الآن، حاول مِرارًا دفع عيناه عن غلقها حتى باءت محاولة أخيرة منه بالنجاح، ليترأى له ما قد انشغل به الجميع من حوله.

كان (فوستر) مستلقيًا على إحدى الطاولات الحديدية في غرفة أشبه بالمعمل، يحيط به الأطباء من كل اتجاه، يقف من ورائهم طَلبة العِلم يتلقفون المعلومات بآذان صاغية ورؤى لا تُزاغ عن السجين، ليرفع (فوستر) رأسه للأمام قليلًا محاولًا معرفة ما يجري، فإذا به يرى ما يحدث لجسده. كان صدره مشقوقًا تتباعد أضلعه، بينما شُق أسفل بطنه لتنكشف أعضاؤه الداخلية للأعين، فإذا بأحد الأطباء من جانبه ينشغل في إخراج أمعائه مستطردًا حديثه إلى طلّابه.

أتت صرخة عالية من حنجرة (فوستر) دون أن ينشغل سامع الطبيب لها، فحاول رفع ذراعه الأيمن ليكُف الأذى عنه، فتأتي حركة يده دون اندفاع وتتلاشى في الهواء، التفت حينها جانبًا نحو ذراعه العاجز، ليجد طبيبًا آخر رافعًا قصبة يده المبتورة للأعلى يعاينها بنظره، بينما تكدس الطلبة من حوله يخِطّون ما

يتلوه عليهم من حديث، اتسعت عينا (فوستر) رعبًا وهو يتأمل طرف ذراعه المتدلي وقد قارب ملامسة وجهه؛ ليرتج جسده المُلقى على الطاولة بعد ذلك من فعلة أخرى.

كان يقف عند موضع قدميه طبيب يافع، يُلازم جانبه طبيب آخر يكبِره سنًا، يراقب إجراء تلميذه لعملية البتر، كان الطبيب اليافع ممسكًا بمنشار طبي ينحر به في قصبة قدم السجين، ينشُر عظامها بأسنان منشاره ناخلًا إياها.

لم يكن صراخ (فوستر) مُجديًا لابتعاد الأطباء المنشغلين في مساعيهم، ليُكتم الصراخ داخل حلقه فور رؤيته لاقتراب طبيبٍ آخر، يجاوره مساعده ممسكًا بصحن حديدي في يده، بينما يتقدم الاثنان نحوه.

قارب حينها الطبيب يده المُمسكة بالملقاط الطبيّ متوجهًا نحو فمه، ليدفع به داخل حلقه ويقبض على لسانه فيجذبه للخارج، جحظت عينا (فوستر) وقد استمر في صراخه، بينما نازعت أوصال لسانه الخروج، لتنصاع بعد ذلك لقوة جذبه بعد عناء طويل، فينجح الطبيب في انتزاع اللسان في النهاية ويضعه داخل الصحن الحديدي، ويهم برفقة معاونه للرحيل.

كان ذلك الكابوس يُلازم (فوستر) منذ أن علم بمصير جسده الأخير بعد وفاته، وفي كل مرة يأتيه النوم تزداد تفاصيل المشهد وحشية في عقله الصارخ بالخوف، ليكره جفنيه الاشتياق لنوم يوعِد بنهايته المحتومة، فتمنى حينها أن يُسكِت عقله عن تلك الرؤى الأليمة مهما تطلب الأمر.(1)

(1) كان يتم استخدام جثث المحكومين عليهم بالإعدام لإجراء التجارب العلمية عليها، طبقًا لنص القانون الجنائي الخاص بالمحاكم الإنجليزية في ذلك الوقت تحت عنوان (The Murder Act 1751).

المرجع: الكتاب القانوني بعنوان (**A History of English Criminal Law and Its Administration from 1750**) للكاتب (Leon Radzinowicz)

الفصل الثامن

(مرارة الفُراق)

أفواه صامتة ووجوه يعلوها الجمود، تتوشح بالسواد في وداعٍ أخير، ما بين رفقاء العلِم وأقارب للراحل وقف الجميع مصطفين صوب المثوى الأخير للعالِم (لويجي)، يراقبون النعش الخشبي وقد بدأت الحبال المحيطة به في الانزياح ليهبط تدريجيًا إلى باطن الأرض، فتعلو بعد ذلك كلمات القس مودعًا جثمان الراحل عن دنياهم.

وقف (جيوفاني) في مقدمة الجمع الغارق في السكون، يبكي في حرقة، تتساقط الدموع رغمًا عن جفنيه المُغمضين، عصفت به الذكريات ليتذكر الحياة التي أمضاها مع من كان بمثابة أب لم يعرف سواه، يضرُب جبينه في حنق، وقد كان المشهد الأليم لعمه يومض بعقله وهو يلفُظ أنفاسه الأخيرة، جاحظ العينين غارقًا في دمائه.

لم تكن والدة (جيوفاني) بجواره هذا اليوم، فقد اشتد المرض عليها بعد تلك الحادثة، لتظل طريحة الفراش بقلبٍ بالكاد يقوى على الصمود، ليزداد الدمع فوق وجنتي (جيوفاني) وهو يخشى اليوم الذي يأتي ويفقدها هي الأخرى، حينئذٍ ربت على كتفه مواسيًا إياه المحقق القائم بالتحقيق في أمر تلك الطائفة اللعينة.. تمنى لو لم يأت ذلك الرجل إلى قُداس الوداع، أو يُحدثه عما بات يعلمه، بعد أن قام بالتحقيق في موت تلك القاتلة.

(أوفيليا) الخادمة.. ليته أعلمه بتورطاتها السابقة وانتمائها لأتباع

الطائفة قبل حين، تلك الفتاة التي تفرقت الحروق بذراعها، لتطمس وشمها وتُخفي حقيقة مسعاها، ليُشل عقل (جيوفاني) للحظات وتتنافر الأفكار وتتناقض بداخله، فهل يمكن أن تبرر الغاية الوسيلة لتصل إلى ذلك الحد؟ كيف لتقاة أن يبيتوا عُصاة، لتحقيق غاية أسمى؟ بات الآن يدرك سبب غوايتها لعمه ومراقبتها الدائمة له وسعيها لمعرفة ما قد توصلوا إليه، لتُعطي الطائفة الأمر بإزهاق روحه الآثمة في نظرهم، فور أن باتت الخُطى وشيكة الوصول للنجاح الذين يخشونه.

أفاضت الحسرة بنفس (جيوفاني) وهو يتذكر اليوم الذي أتى به السيد (هنري) بتلك الخادمة لهم، والذي كان غائبًا عن المشهد اليوم، لقد أعلمه المحقق برحيل الأخير عن منزله، تُرى هل لاذ السيد (هنري) بالفرار خوفًا من أن يلحق بمصير رفيقه؟ أم كان متواطئًا مع تلك الطائفة منذ البداية؟ وإن كانت يداه بريئتين من ذلك الجُرم، فهل علم صاحب العمل الذي أتى بها له بحقيقتها؟ أم أنها اعتصرت عزم عقله بين فخذيها، فكان إغواؤها له كفيلًا بترشيحها.

أفاق الشاب من شَتات عقله إثر دفعٍ هادئ ليد المحقق له، لينظر للإمام تِجاه القس الذي أعاد توجيه طلبه مجددًا تجاهه للتقدم وإلقاء كلمة وداع أخيرة، ليذهب صوب القس الذي بارح وقفته جانبًا، فيقف (جيوفاني) بجواره متأملًا النظر إلى تابوت عزيزه النائم في جوف الأرض.

اغرورقت عيناه بالدمع مجددًا وهو يرفع هامته نحو من أتوا لمواساته، وقد خُيّل له في البداية أن العالم من حوله يبكي على تلك

الفاجعة، ولكن كان ذلك أبعد شيء عن الحقيقة، فقد كان العالم من حوله يضحك مستهزئًا، نظر الشاب لثوانٍ لذلك الجمع ووجوههم الهادئة تجاهه، وقد تجلت بها نظرات الشماتة في ابتلائه، نظرات ساخرة علت بتلك الوجوه بينما صمتت أفواهِها، يرون في جوف الأرض من كان مسعاه إحياء من يسكنون في باطنها، وبات الآن بلا حيلة سوى القبول بها وطن أخير له.

نظر (جيوفاني) حينها إلى الجمع، لتبوح شفتاه بما لم يتوقعه أحد.

- "هل يأتي اليوم، ونتمكن من رؤية مفارقينا يجاورونا المحيا في الأرض مجددًا؟".

تناثرت بين الجمع همهمة مُستنكرة، بينما نظر له القس من جانبه في تعجب، لما قد باح به للتو، ليعود (جيوفاني) للحديث ناظرًا صوب النعش:

- "كان ذلك التساؤل الأخير الذي طرحته على عمي قبل وفاته، ولم أكن أعلم لذلك السؤال من إجابة يقينية حتى الآن".

ثم رفع هامته نحوهم مرة أخرى وهو يكمل في إصرار:

- "ولكنني بت على يقين بأمر واحد؛ الموت هو داء البشرية.. ولكل داء دواء، والعِلم هو الدواء لذلك".

تأمل الطبيب الشاب حينها بعض الوجوه الغاضبة التي بدأت بمغادرة المكان آبية الاستماع لهرطقته، ليشيع بصره بين الباقين ويُكمل الحديث بنبرة أشبه بالصياح:

- "فلتعلموا هذا، إنني عازمٌ على كشف تلك الخدعة التي تُسمى بالموت وإنني أعدكم بذلك.. فقريبًا لن ينتظر الموتى يوم الدينونة للصحوة مجددًا".

تحرك من جانبه القس الغاضب ليبارح المكان هو الآخر، وقد كان ذلك كفيلًا بأن يغادر بقية التقاة هذا المكان الآثم، لحظات راقب بها (جيوفاني) الجمع وهم يهمون بالمغادرة، بينما تتراشق أعينهم النظرات الغاضبة نحوه، ليبدأ خادميّ الدفن في استكمال عملهما بعد انتهاء حديثه، ويُغرِقا القبر بالتراب حتى تساوى سطحه في النهاية.

وقف قِلة قليلة من الجمع يؤازرون الشاب في نكبته، فتحرك تجاهه بعض من رفاق سنواته الدراسية، ليواسيه من وسطهم صديقه (أندرسون)، وحينها قبض (جيوفاني) على مرفق صديقه وهو يحدثه في خفوت من بين شفتيه التي تشبعت بالحزن:

- "أريدك أن ترافقني في مسعاي".

وقف (أندرسون) في مواجهة صديقه في صمت وهو لا يدرك مغزى ذلك الحديث المُبهم، ليجذبه (جيوفاني) في رفق مبتعدين عن البقية، فيحدثه عن رغبته في أن يأتي للمعيشة معه لكي يتعاونا في العمل على خطى (جيوفاني) التالية في تجاربه. لم يكن (أندرسون) ذا وازع ديني كافٍ برفض ذلك العرض السخي لمشاركة صديقه النجاح العلمي الذي يصبو إليه، خاصة وأن والدي (أندرسون) قد رحلا عنه في الصغر، لتبقى ذكراهما ومضات خافتة في عقله، ليوافق على الفور على طلب صديقه في العيش معه

ومعاونته.. أملًا في مساعدته في مخطط من شأنه تأجيل قرار الموت للأحِبة المفارقين لدنياهم.

لم يمضِ على وفاة العالِم (لويجي) بعد ذلك سوى بضعة أيام، كانت كافية ليُقدم (جيوفاني) على ما أقسم به في خطبته السابقة، عكف مع رفيقه (أندرسون) في تلك الليالي على دراسة ما قد وصل إليه عمه من خُطى نحو تحقيق غايته، وقد انصبّ شاغله ما بين ترجيح وتحليل، ليرسم على تلك الخُطى السابقة آراءه الخاصة.

ساعات طويلة كان يقضيها دون أن يَغمض له جفن، ما بين تحضير لخطواته التالية، وما بين رعايته لوالدته المريضة، وقد بدأ قلق جمّ يساوره تجاهها.

لقد تملك المرض منها، وقد يبست روحها بعد تلك الحادثة، فلم تكن فعلة إزهاق روحٍ بيديها هينة من أمرها، حتى وأن برر عقلها تلك الفعلة، فإن الحزن لم يكن يفارق عقلها الشارد في جُرمه، فبات الاكتئاب يجثو فوق صدرها، لدرجة أشعرته أن حكمًا بالموت الوشيك قد صدر نحو روحها.

وعلى الرغم من احتياج والدته لرعاية دائمة، إلا أنه لم يُقدم على خطوة توظيف أحد لرعايتها مجددًا، فلم يكن ليأمن لشخص آخر على التواجد في منزلهم سوى صديقه، والذي كان في ذلك اليوم على موعد مع مشاركته أولى تجاربه.

كان (جيوفاني) على وشك القيام بنظرية ذات مسعى مُغاير لنظرية عمه. الذي كان قد أغفل بها محاولة تنشيط عضو لا يقل

أهمية عن العقل، فوظيفة القلب هي توفير الدم والأكسجين للمخ لتغذيته ليعاون القلب - كعضو رئيس - المخ على عودة إرسال إشاراته العصبية إلى الجسد مجددًا.. ولهذا، فسوف يكون موضع التجربة التالية هو جسد كامل غير منتقص.

وفي داخل المعمل وقف (جيوفاني) ورفيقه بجوار طاولة التجارب ومن فوقها تواجد جسد (هيكتور)، وقد فاح منه رائحة الفورمالين النفاذة التي حُفظ بها منذ وقت رحيله، كان جثمان الكلب يتمدد فوق الطاولة متخشب الأطراف، بينما تخضّب وبره الأبيض بتجلطات دمه من جرحه النافذ الذي تم تقطيبه، ليتصل بأوردة جسده أنابيب مطاطية تسري بها دماء منقولة من كلب آخر، لينظر الطبيب الشاب إلى (هيكتور) بعينين تبوءان بالحزن لمفارقته، آملًا في أن يكون جثمانه هو السبيل لتحقيق خطى ناجحة في مسعاه.

بدأ (أندرسون) بشحن الدائرة الكهربائية للجهاز مولدًا الطاقة المطلوبة، فأومأ لرفيقه بعد ذلك مشيرًا باستكمال خطوتهما التالية، وهنا تحرك (جيوفاني) ليمسك بقطبين حديديين مدببي الأطراف موصولين بأسلاك نحاسية، وقد كانا أولى تعديلاته على خُطى عمه، حيث كانت الموصلات من النحاس الخالص، لتعمل كموصلات أدق لإيصال النبضات الكهربائية المُحفزة.

قارب (جيوفاني) جسد (هيكتور) ليمسك أحد القطبين ويدفع به في رفق داخل صدر الأخير ليتوقف فور ملامسته لموضع القلب، ثم أمسك بالقطب الثاني، فيخترق عظام جمجمته عبر القناة السمعية للأذن اليُمنى، لينجرف القطب الكهربائي إلى موضع المخ، فتحرك

تجاه الآلة الكهربائية وأمسك بمقبضها استعدادًا للخطوة الأخيرة.

لحظات مرت من تأمله إلى جسد (هيكتور) الساكن، ليأخذ نفسًا عميقًا ويزيح بمقبض الجهاز للأسفل، أصدر الجهاز حينها أزيزًا خافتًا، بينما تشذرت الأسلاك الموصِلة بالأقطاب النحاسية مُعلنة سريان طاقة الكهرباء داخلها، لتصل إلى نقاطها المُحددة داخل موضع تجربة الطبيبين.

ظل (هيكتور) ساكنًا في موضعه دون أي بادرة على فعالية التحفيز الكهربي، فلا يتبين ظهور أي مؤشرات حيوية لأي من وظائفه، حينها تبادل (جيوفاني) النظرات الصامتة مع رفيقه، بينما كان (أندرسون) مُنصب النظر إلى موضع جسد (هيكتور) بعينين لا تبارحان موضعه، ليرفع (جيوفاني) مقبض المحوّل الكهربي للأعلى ويُسكِت سريان الشحنات لثواني، ثم عاد لإزاحته للأسفل مجددًا، فيعود الجهاز لإرساله لشحناته دون أن يُرى له من جدوى، فيعاود تكرار فعلته مرة أخيرة، باءت هي الأخرى بالفشل.

حينها أعاد (جيوفاني) المقبض لموضعه وقد خيمت غيمة من خيبة الأمل فوق رأسه، ليذهب إلى (هيكتور) الذي ودع الحياة دون أمل في العودة إليها.

اقترب الطبيب الشاب من رأس (هيكتور) يتأمل جفنيه الساكنين في موت أبديّ، ليملّس بيده على رأس صديقه الوفي، بينما حدث نفسه في أسى:

- "(هيكتور).. لكم تمنيت أن أقضي معك أوقاتًا أكثر، مثلما اعتدت

في صباي".

ثم أزفر في حنق:

- "لقد أهملت صحبتك في سبيل العلِم، وقد خذلني في النهاية في رد المعروف لك".

ثوانٍ مرت من صمته بعد ذلك ليبتعد عن جسد (هيكتور) والحيرة تعتريه عما غفل عنه في تجربته، وقبل أن تصل خطاه إلى نهاية الطاولة أباحت ثورة عقله بالغضب، ليهوي بقبضته على الطاولة في حسرة منه لفشل مسعاه ويكمل تحركه مبتعدًا، حينها باغته رفيقه متحدثًا:

- "(جيوفاني)!!".

التفت (جيوفاني) إلى صديقه على الفور، ليراه منصب النظر نحو رأس (هيكتور) وقد استرعاه أمر ما، ليصيح (أندرسون) في لهفة شديدة:

- "فلتُعد فعلتك تلك مرة أخرى".

حينها التفت (جيوفاني) ليواجه طرف الطاولة الحديدية دون أن يفهم مغزى هذا الطلب، فيطرق بيده على الطاولة مرة أخرى وهو ينظر نحو (هيكتور)، ليدرك على الفور أن الفشل لم يكن حليفه كما ظن سابقًا.

تحرك طرف أُذن (هيكتور) اليسرى قليلًا، مُعلنًا انتباه حاسة السمع لديه لدويّ طرق الطاولة، نظر (جيوفاني) نحوه غير مصدقٍ لعينيه،

ليعاود الطرق في موضع آخر من الطاولة، فيرتعش طرف الأُذن نحو صوت الطرق مجددًا، التفت (جيوفاني) إلى رفيقه بعينين لا تصدقان بادرة نجاح مسعاهما، لتنقضي الساعات التالية في محاولة إكمال تجربتهما، أملًا في أن تُلاقي عيناه عيني صديقه الغائب.

انقضى وقتٌ ليس بالقليل على تلك التجربة الأخيرة، ليجلس الاثنان في بهو المنزل يساورهما شعور غريب امتُزج بين الفرحة والحزن، في ذلك المسعى الذي لم يبوء بالفشل كليًا بل كُلل بخطوة

توعِد بالأمل الوشيك، فعلى الرغم من عدم قدرة (جيوفاني) على إحياء وظائف (هيكتور) كُليًا وتحفيزها للعمل، إلا أن ما قد بدر سابقًا يُعد خطوة ناجحة تخطى بها خُطى عمه الراحل.

أخذت الترجيحات العلمية وقتها تعصف بعقليهما وتتجادل بها ألسنتهما، فلربما كان سبب عدم استجابة بقية الوظائف الحيوية للعودة للعمل، هو تضرر الجثمان من تلك الطعنة النافذة التي اخترقت الأعضاء الداخلية، ولربما يُعد أيضًا تيبس الأعضاء وضمورها النسبّي سببًا لإحجام إشارات المخ عن القيام بتحفيزها العصبي المطلوب.

فرضيات كثيرة وحلول قريبة جالت بعقليهما، وقد دام وقت ليس بالقليل لم يدركا مروره منشغلين في التخطيط لمسعيهما القادم، ليأتي بعد ذلك ما قد أرق السعادة في نفسيهما.

تحرك (جيوفاني) نحو باب المنزل ملبيًا طرق أحدهم، ليجد من أمامه المحقق وهو ينظر نحوه بعينين زائغتين وفم يتردد في الإفصاح عن سبب زيارته، الأمر الذي لم يدم طويلًا حتى أعرب لهما عن سبب مجيئه.

* * *

انحنت درجتا سُلم عربة الشرطة للأسفل فور ترجل (جيوفاني) منها والمُتعجل في أمره..غوغاء حاشدة تتحرك في الجوار، يُجاهد أفراد الشرطة احتواء فضولهم القلِق ومحاولتهم للتقدم واختلاس النظر، نحو ما يقبع في أحد الأزقة المجاورة، والتي أغلقتها الشرطة

بالمتاريس الخشبية لمنع العامة من التوغل أكثر صوبها.

اندفع من وسط ذلك الحشد المحقق ومن خلفه (جيوفاني) ورفيقه، بينما أحاطهم فردان من الشرطة يدفعان بهراوتهما في صياح متوعد لمن أمامهما مُفسحين لهم التقدم الحثيث، ليتجه المحقق ورفيقيه لتلك المتاريس متخطين إياها ليصلوا إلى موقع الحادث، شاخصي البصر إلى أحد جدران الزقاق العالية من أمامهم.

جسد عارٍ يفتقد لرأسه.. بُترت أطرافه لتتباعد عن الجسد المصلوب نحو الجدار، أحاط بالعُنق المنحور حقيبةً قماشية، تكدس بها سمادٌ عضوي، وقد فاض بعضه ليتساقط على الأرض.. لا أثر

لبحث الشرطة عن الرأس المفقود للقتيل في ساحة الجريمة، ولكن كانت الكلمات المكتوبة بالطلاء الأحمر من أسفل الضحية كافيةً بتبيان كنيته... "هنا يرقد (لويجي) المتضرع للعِلم دون ربه".

أصابت الصدمة عقل (جيوفاني) ليتملك الحزن من روحه ويقع أرضًا، ليُحرَر صوت الصراخ المدفون في حلقه وهو يجهش بالبكاء في مرار أليم.. لقد نُبش قبر عمه، فلم تمر أيام على وفاته حتى تمت سرقة رأسه والتمثيل بجثمانه وتدنيسه ليصبح عِبرة للغير، ودلالة على إحقاق عدالة الطائفة وصدق تهديداتها في أن يطول جزاؤهم عصاة الرب حتى في قبورهم، فلا ترقد أجسادهم هانئة في مثواهم الأخير.

* * *

مُذكرات مجهول

المذكرات لا تؤذي.. المُذكرات تُشفي الروح من ثِقل آثامها. كان هذا دومًا هو شعوري تِجاهك وقد بات البوح لكِ بما تقترفه يداي، لا يُشفي روحي بعد الآن، لربما أودع أوراقك في القريب، فلم أعد أطيق النظر إلى صفحاتك الفارغة وهي تتوسل إليّ لأبدأ بحديثٍ بت أبغض البوح به، لقد أصبحت الآن سجين تلك الجدران مثل هؤلاء المساجين، ولكن كلانا كان ينظر للقضبان من جهتين مختلفتين ليس أكثر.

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر".

تلك كانت تعاليم المسيحية، وياليت أصحاب السلطة يؤمنون بذلك، ولكن على النقيض، فهم يلقون بحجارتهم لتتكوم كالجبال فوق النفوس المُذنبة.

بت لا أعلم السبيل لنجاتي من ذلك الشعور بالذنب، وقد كانت معاونتي للمفتش في تعذيب ذلك السجين، تُذهِب البراءة عن روحي يومًا بعد يوم.

(تشارلز) السَّادي.. ذلك الكلب المسعور الذي لا يسترعي سيده تحجيم أفعاله، شعرت دومًا بأن ذلك القس يُطبق عدالته الخاصة تحت مسمى عدالة السماء دون أي رحمة أو شفقة منه.

واليوم عاونت (فوستر) وقد كان خائر القوى على العودة لزنزانته مُغطى بالكدمات، فلم تعد أيدي العدالة تبطش به وحدها

تلك الأيام، بل كان هنالك من يتمنى إرضاءهم بأي وسيلة مُمكنة.

كان السجين يعاني من اضطهاد جليّ، من أحد نزلاء هذا السجن في الأيام السابقة، فلا تخلو فترة خروجه من الزنزانة للساحة العامة، من مضايقات لسجين آخر يُدعى (جونز آدم/ Jones Adam) الذي يقضي سنوات عقوبته التي شارفت على الانتهاء، دون أن تَتوب يداه عن إذاقة الأذى للآخرين، فما بين دفع وسباب وافتعال للنزاع.. يُعلِل بها الضرب المُبرح الذي بات يلاقيه السجين (فوستر) على يده.

كان من المفترض أن تزيد أي من أفعال الشغب من مدة عقوبة فاعليها، ولكن كان لبعض الجرائم الأخرى التي يطلب المفتش من السجناء تنفيذها، بمثابة وعد بالمكافأة لهم.. فلا يتوانى أحد منهم عن فعلها سعيًا لإرضائه.

بات (فوستر) وحيدًا دائم التعرض لبطش الأخير في ساحة السجن، كان في بداية أيام ملاقاته لتنمر السجين (جونز) له يرفض الخروج من محبسه، يجلس به وحيدًا خائفًا، لتمر إحدى الأيام ويتجرأ على الخروج، كان دائم الجلوس في الساحة، يرقد في الأرض بجانب إحدى المدرجات الموضوعة للسجناء دون اعتلائها، وكأنه قد حُكم عليه بحياة أدنى من بقية زملائه، لم يهتم في تلك الأيام بالخروج والتعرض لبطش ذلك السجين، عازمًا على ألا يفوت يومٌ آخر وقد عشق دقائق الحرية التي يعِد بها هذا السجن.

واليوم لم يكن يختلف كثيرًا عما سبقوه، كنت أقف في الساحة برفقه زميلين لي نراقب المساجين في وقت راحتهم، التي يقضونها ما بين التريض والتسامر مع رفاقهم.. تلاقى نظري مع جلوس (فوستر) كعادته بجانب إحدى دُعامات المدرج يتناول غذاءه منعزلًا عن البقية، كان رفيقه (سباستيان) يجلس بصحبه آخرين مبتعدًا عنه خِشية أن يطوله الأذى الذي يناله صديقه دومًا، التفتُ بعد ذلك إلى السجين (جونز) الجالس في ركن آخر مُنشغِلًا في المزاح مع بعضٍ من رفاقه.

تحركت خطاي جيئة وذهابًا في رتابة معتادة، وقد شارف وقت راحة السُجناء على الانتهاء والعودة لزنازينهم لبقية يومهم، لاح لمسامعي بعد لحظات مُشاجرة أحد السجناء مع زميل آخر له، يُقاربان وجوههما تجاه بعضهما كالثيران الغاضبة، يتراشقان السُباب وسط فورة من اللعاب، وقد أوشك بركان غضبهما على الانفجار، نظرت حينها لزميلي الذي أسرع في خطاه نحوهما لأرافقه ممسكًا بهراوتي استعدادًا لما هو قادم، فلم تكد خطانا تُقارب إياهما حتى انهالت لكماتهما نحو بعضهما البعض.

أجساد غاضبة تتمرغ في تراب الأرض، تُحيطهم صيحات بقية السجناء في نشوة لرؤية الدماء من وسط تلك اللكمات المتطايرة، أسرعنا نحوهما محاولين حلّ التحامهما أرضًا. مضى وقت ليس بالكثير وقد انضم لنا رفيقنا الثالث، علت صيحاتنا وانهالت عصياننا فوقهما حتى تمكنّا من تفريقهما في النهاية، لينهض السجينان بعد ذلك ويهمَّا بالابتعاد عن بعضهما البعض دون أن

يلتفت أحدهما للآخر.

بدا الأمر لي غريبًا حينها.. فلم تكن الكراهية التي اندلعت بينهما منذ لحظات تتواجد الآن، فلا يلتفت أحدهما للآخر وكأنهما لم يكونا على خلاف يومًا، مجرد جسدين افترشا الأرض بقوى خائرة لا يسترعيان أمرًا لما حدث منذ لحظات سابقة، فيجلسان بعد ذلك جانبًا ليرتاحا من ذلك الأداء الذي كان أشبه.. بالمسرحية.

التفتُ على الفور إلى الركن الآخر للساحة، والجالس به (فوستر) منذ بضع دقائق، لأُبصر التفاف زُمرة من السجناء نحو مجلسه السابق دون أن ألمح له موضعًا، حينها أدركت الخدعة التي انطلت علينا دون دراية منا، كانت تلك المشاجرة مُفتعلة.. لينصرف شاغلنا نحوها بدلًا من مراقبة المكان، لتُتاح الفرصة لجريمة أخرى لم أكن أُدرك أمرها بعد.

سابقت قدماي الريح نحو ذلك الجمع المُلتف في صمت لما هو من أمامهم، دفعت جسدي لاخترق صفوفهم بوعيد غاضب يُقارب الصياح، لتنصاع أجسادهم لدفعاتي فأتوغل للداخل أكثر.. تسمرت قدماي رغمًا عني وقد شاهدت السجين (فوستر) مُسجى على الأرض يُصدر فاه أنين ألم، امتزج بلعابه المنساب من فمه، بينما تجلت سحجات أظافر فوق سرواله، وقد انزاح للأسفل عن موضعه عنوةٍ ليعجز عن أداء مهمته لإحكام حياء أسفل جسده.

رفعت حينها هامتي نحو السجين (جونز) الواقف بجانبه، وهو يهم بإعدال سرواله المتدلي وقد أفضى بالسجين حاجته،

لينظر نحوي دون مبالاة بما قد اقترف منذ لحظات، دفعت عقلي المُنذهل من قسوة ما قد أدركه عقلي من هتكه لعرض السجين (فوستر).. توجهت نحوه، وما أن قاربت وجهه حتى مط شفتيه وهو يهز كتفيه ساخرًا وكأن أمرًا لم يكن، ليبوء فوه بعد ذلك بضحكة ساخرة أتت رغمًا عنه، تبعتها ضحكات السجناء الآخرين من حوله.

أطحتُ حينها بهراوتي نحو وجهه ليسقط أرضًا، فتُلفظ الدماء من فمه على الفور، فلا تُلاقي فعلتي غضبًا منه، ليندفع الحارسان الآخران نحوه ويحُكما تقييد حركته ليصحباه لمفتش السجن.. لم تبارح الابتسامة وجهه وقتها وهو يعلم ما سيناله من رضا لأسياده، وقد كان لهم كلبًا مطيعًا حتى النهاية.

انكفأت نحو السجين المُسجى أرضًا لكي أُعاونه على النهوض، تمسكت بجسده المُترنح للمُضي قُدمًا من وسط الوجوه المُلتفة من حولنا، وقد مزقت نظراتهم الساخرة روح الأخير من جانبي، لم أكن أتوقع ما قد تلفظت به حينها، ترجيته أن يتوقف عن الخروج من محبسه خِشية أن أعجز عن مراقبته وحمايته.. ولكن لم يؤتِ لحديثي من ثمار، وقد أتت إجابته القاطعة لي.. بأنه سوف يهم بالذهاب للساحة كل يوم حتى يحين موعد يومه الأخير.

الفصل التاسع

(طيف الحزن)

وقف (جيوفاني) يشاهد العمال وهم يُجاهدون في حمل شاهد القبر الصخري المنحوت به اسم المتوفي، ليغرزوا منبته فوق التربة فيتوّج القبر من أمامه، همّوا بعد ذلك بالرحيل تاركين إياه في مصيبته، لتتأمل عيناه المغرورقتين بالدمع شاهد القبر والاسم المنحوت به، "هنا ترقد الوالدة الحنونة (هيلين جونز).. لقد رحلت والدته عن الدنيا في نهاية الأمر.

اعتصر الندم قلبه لاعنًا لسانه الذي أباح لها بما حدث لعمه، من تمثيل لجثمانه، لم يحتمل قلبها الواهن بين ضلوعها فجاعة الأمر، كان خوفها على ما هو مُقبل لولدها من وعيد كافيًا بتحطيمها إربًا، فلم يمر يومان حتى لحقت بفقيدهما الآخر.. وقف رفيقه (أندرسون) بجواره وقد خلى المشهد من أحدٍ سواهما، لم يكن هنالك من مؤازرين لحزنه، فقد عزف الجميع عن التواجد في حضرة تلك العائلة الملعونة، خشية أن ينالوا سمعة تأييدهم ويلحق بهم الأذى هم الآخرون.

وفي طريق عودتهما للمنزل حدّث (جيوفاني) رفيقه عن خطوة جديدة في مسعاهما القادم، لم يرُق لـ (أندرسون) ما قد حدثه به في بداية الأمر، ولكن سرعان ما قد استجاب لرغبته متوجهًا للمغادرة قاصدًا وجهة أخرى، ليعود (جيوفاني) في عربته إلى منزله وحيدًا للمرة الأولى.

دلف (جيوفاني) إلى غرفته وقد تملكه إحساس مقيت بفقده لكل شيء، حاول جاهدًا النعاس فيبعده عنه حزن نفسه، تمدد على ظهره لثوانٍ متأملًا سطح غرفته، لينتبه سمعه بعد ذلك لصوت نداء والدته له.. فنظر جانبًا نحو الباب ليبصر طرف ثوبها ينساب داخل غرفتها، بينما أكملت نداءها إليه، فأطاح بلحافه على الفور ليهب من جثوته وقد لم يصدق عقله ما رأه للتو، ركض نحو الغرفة الأخرى، ليجدها خاوية دون أي أثر لها.

عاد بعد ذلك لفراشه وقد خشى حينها أن يُنبئ عقله بالجنون، لتمر لحظات حتى لاح له سماع نداء والدته إليه مجددًا، فجنح برأسه جانبًا ليتأمل وجود طيفها يقف عند نهاية الردهة، ينظر تجاهه. كانت والدته حينئذ تدعوه للإتيان إليها لمعاونتها على هبوط درجات السلم للأسفل، ظل (جيوفاني) ناظرًا نحو طيف والدته دون أن يقوم له من ساكن، ينظر نحوها باكيًا بينما اعتصره ألم رؤيتها وقد ودع جثمانها في الصباح، أعادت عليه نداءها مرات عدة بصوت هادئ دون توقف، لينقلب جانبًا ويدفن رأسه في وسادته محاولًا عدول عقله عما هو موشِك عليه.

وفي صباح اليوم الجديد، تواجد إعلان صغير بالصحيفة اليومية يقبع في نهاية الصفحة الأولى، وعلى الرغم من صِغر كلمات ذلك الإعلان إلا أنه أثار جدلًا واسعًا منذ قراءة أولى سطوره، فقد كان الإعلان موجهًا لمن فقدوا ذويهم، يدعوهم للقدوم لمنزل عائلة (جالفاني) من أجل محاولة إعادة مفارقيهم للحياة، ليَلقوا أحباءهم مرة أخرى.

مرّ يومان على ذلك الإعلان دون أن يُقدم أحد على المجئ إليهم، ليقرر صاحب الجريدة بعد ذلك التوقف عن عرضه في الأيام المُقبلة، نتيجة شن حملات لمقاطعة تلك الجريدة والإعلان الآثم بداخلها. انقضت أيام طوال دون أن يلبي أحدهم نداء العلِم، وقد نسى العامة ذلك الإعلان الذي بات ماضيًا لا يريد أحد تذكره، إلا أن هناك من قد قرأه سابقًا ولم يتوقع يومًا أن يكون هو السبيل لغوثه من مصيبته.

وفي أحد الأيام، أثار طرق قوي الفزع في قلوب ساكني المنزل؛ ليهرع (جيوفاني) من معمله برفقة صديقه إلى الباب، فيجدا رجلًا ضخم الجثة، تنم ملابسه الرثة عن انتمائه للطبقة الكادحة، يحمل طفلًا صغيرًا لا يُجاوِز التسعة أعوام، يرقد بين ذراعيه غارقًا في المياه وقد أشبعه الموت.. لينظر الرجل إلى (جيوفاني) وتنبث شفتاه بأولى كلماته:

- "أتوسل إليك أن تُنقذ ولدي".

لم يتوقع (جيوفاني) أن تأتيه الفرصة زاحفةً يومًا ما، وها هو الآن على موعد يتحدى فيه القدر، فحمل الطفل من والده وركض به إلى المعمل، فمدد الفتى على الطاولة، بينما وقف والده المُتلهِف ينظر إلى الآخرين اللذين شرعا في التجهيز لتجربتهما.

تحرك (جيوفاني) لشحن دائرة الجهاز الكهربائي، ليسأل الرجل في عجالة أثناء شروعه في العمل عن سبب وفاه الصغير، فإذا بالأب يبكي حزنًا لسقوط ولده من أحد الجسور أثناء لهوه مع أصدقائه، لتنتفض خلايا جسد الرجل جميعها بعد ذلك، فور اقتراب (أندرسون)

بمشرطه الطبي من جسد فلذة كبده.

قبض الرجل سريعًا على يد (أندرسون) وهو يخشى على ولده، ليُعلل له (أندرسون) ضرورة إزالة الملابس المبتلة عن جسد الصغير، خشية أن تؤدي المياه المُلامسة للجسد إلى سريان خاطئ للشحنات الكهربائية، ترك الأب المفجوع يد (أندرسون) بعد ذلك، ليسرع الأخير في تقطيع الملابس وتعرية جسد الصغير، وهنا تحرك (أندرسون) ليتبادل موضع صديقه، بينما أمسك (جيوفاني) بالقطبين الحديديين الموصّلين للجهاز، ليتأنى النظر نحو جسد الصغير للحظات قبل أن يشرع في التجربة.

راقب الرجل الطبيب الشاب وهو يبدأ في إسكان إحداهما داخل أضلع الطفل، ثم عاد ليكمل عمله، ليلتف جانبًا وينحني قليلًا ويبدأ في إدخال القطب الآخر مخترقًا القناة السمعية، فيُغمض الرجل جفنيه في تأذٍ وهو لا يحتمل رؤية ما يحدث لفتاه الصغير.

أومأ (جيوفاني) إلى رفيقه بإشارة منه للبدء، فأزاح (أندرسون) بمقبض الجهاز للأسفل؛ لتفيض شحنات الكهرباء نحو قطبيها، وقف الجميع ينظرون لذلك الجسد الساكن لثواني، والذي سرعان ما بدأت الانتفاضات تتملك من جسده الضئيل، فالتصق الرجل بموضع ولده بعينين تتلهفان لرؤية بادرة حياة به؛ لينظر (جيوفاني) إلى رفيقه آمرًا بشحن المزيد من الكهرباء، فيستمر (أندرسون) في إدارة القرص مسرعًا في حركته حتى تخدل ذراعه لتزيد الكهرباء من قوة شُحناتها.

وهنا.. بدأ الصغير في الانتفاض أكثر مما سبق، ليرتفع صدره بغتةً وتنقبض معدته لثوانٍ، ثم عاد جسده ليهدأ كليًا، لتهيج أمعاؤه في قوة بعدئذ نتيجة فيض الكهرباء بها، وتنقبض، فانفرج فم الصغير؛ ليندفع من جوفه عصارة أمعائه.. فيعاود الجسد بعد ذلك سكون حركته مرة أخرى.

وقت طويل قد مرّ على إعادة شحن الكهرباء في ذلك الجثمان، ينتفض جسده دون مؤشرات به للحياة، وقبل أن يشرع الطبيبان بالبدء في محاولاتهما مجددًا، أشار الأب بيده للأعلى في حزن طالبًا التوقف عن استكمال مسعيهما، وقد آلمه ما يراه من معاناة ولده في موته، فتقبل حينئذٍ ما لم يرد تصديقه من قبل.. وهو فُقدان صغيره للأبد.

تجلت علامات خيبة الأمل على وجه (جيوفاني)، فتخلي (أندرسون) عن مقبس الجهاز في تجهم معلنًا توقف التجربة وقد كان الفشل حليفًا لهما، ليباغت (جيوفاني) الاثنين بترك المعمل على الفور، ويُسرع نحو درجات سُلم الطابق العلوي، تاركًا الرجل تُطالع عيناه الحزينة وجه ولده.

تحرك (أندرسون) ليبدأ في إبعاد القُطبان عن جثمان الصغير، فانحنى الأب ليلتقط ملابس ولده الممزقة ويحاول إلباسه إياها، وهنا عاد (جيوفاني) إلى المعمل ليتوجه إلى الرجل وهو يحمل بين يديه بِزةٍ رسمية كان يملكها في صِغره، ليأتي بها إليه ويحدثه بابتسامة ودودة، قائلًا:

- "اعتدت في صباي، أن أرتدي تلك الملابس الرسمية، وقد احتفظت والدتي بها منذ الصغر، وكم يسعدني أن أراها تتزين بجسد صغيرك".

ثم أطال ذراعيه نحوه مكملًا:

- "فلتحُسن إكرام دفن ولدك الصغير.. وثِق بأنه كان يعلم مقدار حبك له قبل أن يفارقك".

لم يستطع الرجل كبح زمام حزنه الدفين، لتدمع عيناه على صغيره وهو يأخذ تلك الملابس، فيقف بيدين تعجزان من الرجفة على إلباسها له، فأمسك (جيوفاني) بالملابس وبدأ في إلباسها للصغير بدلاً عنه، بينما لم تبارح عينا الأب ملامح ولده الغارق في نومه الأبدي.

تقدم (جيوفاني) الرجل إلى باب المنزل، ليخرجه حاملًا صغيره للخارج وقد نكّس الحزن جبينه.

- "أيها السيد....".

توقف الرجل ليلتفت بجانبه نحو (جيوفاني)، فأكمل حديثه له:

- "أعتذر لك عن كوني الملاذ الأخير الذي لجأت إليه وقد فشلت في مسعاي.. ولكن صدقني، سوف يأتي اليوم الذي أزيح فيه الحزن عن صدور من فقدوا عزيزًا لهم دون القدرة على توديعهم".

التف الرجل في صمت عائدًا للتحرك مجددًا، ليغلق (جيوفاني) الباب في هدوء، وقد أصابته عدوى الحزن على ذلك الفتى، فجلس في البهو منكفئًا للأمام يستند بجبينه على راحتيّ يديه منشغل

الذهن فيما حدث، ليأتي (أندرسون) ويجلس بجواره في صمت لم يدم للحظات، قبل أن يحدثه:

- "لم يكن بيدينا شيء آخر لنفعله... ربما علينا إصلاح ما أخطأنا فيه في المرة السابقة.. وربما ثُكلل تجربتنا بالنجاح في المرة القادمة".

ظل (جيوفاني) غارقًا في تفكيره دون أن يجيب عليه، ليهم صديقه بالنهوض من مجلسه ليربت على كتفه، ويذهب للطابق الأعلى عازمًا على نيل قسط من الراحة بعد يومٍ حافل. نهض (جيوفاني) من مجلسه ليأتي بكُتيّب عمه ويبدأ في تدوين ملاحظاته الخاصة، بعد أن رجح حينئذٍ كون أعضاء الصغير الداخلية قد تضررت، وخاصة رئتيه التي امتلأت بفيض المياه، لتأتي ملحوظته الأخيرة التي دام ترددها في عقله.

أن بمؤشرات النجاح البسيطة التي ظهرت على الأجساد الصغيرة للحيوانات والأطراف البشرية، لربما يحتاج الجسد البشري إلى سريان طاقة كهربائية أقوى من تلك التي يصدرها الجهاز الذي قام عمه بصناعته، وكما ذكر عمه في إحدى الصفحات السابقة بكُتيّبه، قد يكون الجهاز الكهربائي الذي قام بصنعه (فولتا) يفوق قدرة هذا الجهاز، وقد يكون هو القطعة المفقودة التي يحتاج إليها، ليقرر زيارة منزل ذلك العالِم في النهاية وهو يعلم في قرارة نفسه أن عمه لم يكن ليرضى بذلك.. ولكنه كان حتمًا سوف يسعد كثيرًا إن أتى مسعاه بالنجاح في النهاية.

انتهى (جيوفاني) من تدوين ملاحظاته ليتحرك متجهًا لغرفة نومه، وقد عزم على القيام بخطوته التالية في الصباح الباكر، فدخل لغرفته وأغلق الباب من ورائه ليتقلب جانبًا في فراشه حتى خبا التفكير في عقله واستسلم لنعاسه، ليستشعر بعد دقائق من نومه بثِقل أمال الفراش من جانبه، فأغمض عينيه في سعادة فور أن لامست وجنته يد هادئة طال افتقادها، ليهنأ بالنوم بعد أن احتضنه طيف والدته، آبيةً تركِه وحيدًا في عُزلة نفسه.

* * *

مُذكرات مجهول

مذكرتي العزيزة، أعلم باشتياقك لي في الأيام السابقة، كانت تلك الأيام ثقال على النفس ولا رغبة لها بالبوح بالمزيد، ولكنني اليوم عازم على إخبارك بما سوف تخط به يدي، وقد عزِمت في القريب على أمر هام.

أتى الصباح بصياح عالٍ للسجين (سباستيان) من محبسه، لأقتحم محبسه على الفور، وأجده يجلس بجوار (فوستر) الغارق في الدماء النازفة من معصم يده، ارتجّت الجدران بصوت قرقعة

الخطوات المُتسارعة لمفتش السجن ومعاونيه، بصحبة الطبيب المُختص، ليأتوا سريعًا لملاقاتي داخل الزنزانة فور أن وصلهم نداء أحد الحراس لاستغاثاتي، دلف المفتش (تشارلز) ليبصر إقدام (فوستر) على الانتحار وإزهاق روحه، وقد اندفع الطبيب من جواره لمحاولة إنقاذ السجين المُغشى عليه، اهتدى نظري حينها إلى وجود مسمار صدئ من جانب يد (فوستر) الدامية، فوقفت شارد الذهن متعجبًا من كيفية حصوله عليه، لأهرع إلى رفيقه المُقرب (سباستيان).. وقد كان لديه العلِم بما احتاج لمعرفته.

علمت أن (فوستر) قد أدرك بأحد الأيام أثناء تواجده في وقت الراحة بجانب المُدرج الخشبي، وجود مسمار صدئ ينغرز في جوف جزع الخشب من جواره، كان المسمار عصيًّا على اليد في إخراجه والحصول عليه، تطلب الأمر أيامًا طوالًا، ينبش بها بأظافره لينحل ما يحيط بالمسمار، فيظهر منبته للعلن في النهاية، أدركت حينها سبب إقدام (فوستر) على الخروج من محبسه كل يوم في محاولة منه لإخراج ذلك المسمار من موضعه.

أكمل (سباستيان) الحديث وشعور الذنب يمزقه، حدثني حينها بمعرفة سبب قيام (فوستر) بإزهاق روحه، لم يكن السبب هو معاناته اليومية داخل السجن على يد السجين (جونز)، ولم يكن السبب أيضًا تعذيب المفتش (تشارلز) الدائم له.. فقد كانت رؤياه الدائمة لذلك الكابوس تُطبق على روحه كل يوم.. كان ذلك الهاجس قد تملك عقله في الفترة الأخيرة دون فرصة للفرار منه،

وقد خشي أن يأتي اليوم ويعود بعد موته داخل إحدى غرف التشريح.

بات ذلك الهاجس غير المنطقي أقوى من أن يتحمله عقل (فوستر) [6] ، ليحاول إنهاء حياته بيده، وقد لم يتحمل عقله أن يسكن هاجسه بداخله بعد الآن. تحركت بعد ذلك لأقف بجانب (فوستر) بعد أن استطاع الطبيب في النهاية تضميد جرحه قبل أن ينزف حتى الموت.

التقط المفتش (تشارلز) المسمار الصدئ بيده، ساخرًا من ظن (فوستر) بأن ذلك المسمار سوف يكون ملاذه للفرار من يده، متوعدًا إياه بعذاب أشد قسوة مما عاناه من قبل نتيجة فعلته، لم أظن أن السجين الفاقد للوعي قد أنصت لأي من حديث المفتش، ولكني كنت على يقين بأنه سوف يتمنى أن محاولة رحيله عن الدنيا قد نجحت، ويلاقي في الآخرة رحمة أكثر مما ينالها داخل جدران هذا السجن المرير.

الفصل العاشر

(الوعد)

أتى وقت الصباح لتتحرك العربة موصِلة (جيوفاني) ورفيقه نحو وجهتهما لمنزل أحد الأثرياء، ليطرق (جيوفاني) الباب فتفتح لهما خادمة المنزل.

جلس الاثنان في بهو المنزل منتظرين إتيان صاحبه، تطلعت أنظارهما إلى لوحة فنية مزدانة بإطار ذهبي على أحد الجدران، كانت اللوحة تحتوي على رسم زيتّي لصاحب المنزل وهو يُجلِس ابنته الصغيرة على فخذِه، بينما داعبت الابتسامة وجهيهما، لتأتي الخادمة بعربة تحمل ثلاثة فناجين من الشاي، تعالت الأبخرة من حلوقها فأمسك (أندرسون) بفنجانه ليرتشف منه، بينما وقف (جيوفاني) ليعود ليتأمل عن قرب تلك اللوحة مرة أخرى.

- "لمن العجيب مرور الوقت دون دراية منا".

التفت (جيوفاني) نحو العالِم (فولتا) وهو يهم بنزول درجات السلم من الطابق العلوي؛ ليتقدم نحوه وهو يبتسم مُكملًا:

- "لقد باتت صغيرتي في التاسعة عشر من عمرها، وقد تزوجت لتتركني وحيدًا بين جدران هذا المنزل".

تقدم (فولتا) بخُطى هادئة ليتبوأ مقعده، ليجلس الآخران على مقعديهما، فأمسك بفنجان الشاي الساخن متحدثًا لـ (جيوفاني) بصوت خفيض:

- "تعازي الحارة لوفاة عمك.. فعلى الرغم من خلافنا إلا أننا لا نستطيع أن نُنكرر أنه قد أفنى حياته في سبيل العلِم وتقدمه".

ثم بدأ في ارتشاف فنجانه منتظرًا حديث (جيوفاني)، والذي لم يكن حينها يهتم سوى بأمر واحد، فقد بدأ بالحديث عن تجاربه مع عمه دون أن يكمل الأخير حلمه، ليُكمل هو تلك التجارب بخطواته الخاصة، اعترف له حينها بملاحظات عمه حول ترجيح فشل تجاربه لفشل آلته في إحداث تيارٍ كهربائي مناسب، وكفيل بتأثير كافٍ لتحفيز الأعضاء على العودة لعمل وظائفها بشكل سليم، ليعقد (جيوفاني) من أمره بعد ذلك ويدعوه لمعاونته مستعينًا بجوهرة صناعات ذلك العالِم، تلك الآلة التي تفوق قدرة طاقتها الجهاز الذي كان يستخدمه.

أثار حديث (جيوفاني) الاهتمام البالغ بالرجل، فقد كانت دعوة الطبيب الشاب له بمشاركته ذلك النجاح الذي يصبو لنيله كفيلة بأن يعلو اسمه فوق سماء جميع أقرانه، لتُثمر زيارته لـ (فولتا) في النهاية عن تعاون من شأنه إحداث تغييرات جذرية قادمة.

وحين حل الليل بعد عناء يوم طويل قضاه (جيوفاني) داخل معمله، ودع صديقه ليصعد إلى غرفته بجفنين يشتاقان للنوم، ويغفو في نوم اشتاق له منذ الصباح. أدت حينها نسمات الهواء

الباردة، والمنسابة من تراقصات ستائر النافذة من جواره إلى سريان الرجفة في جسده، فيتقلب في الفراش بعينين مُثقلتين، فإذ بجفنيه يريان طيف والدته الراحلة، تقف بجانب الستائر المتمايلة وهي تتمعن النظر نحوه بوجه قلِق لم يعهده بها.

أفاق عقله على الفور نحو موضع طيفها فنهض سريعًا لينير الغرفة، فالتفت صوب النافذة فلم يجد لطيفها أثرًا وقد رحلت عن المكان، فذهب ليغلق مِشراع النافذة ويوقف سريان النسمات المؤرقة لنومه، وما أن اقترب من زجاج النافذة حتى وجد رجلاً يقف بالخارج ينظر صوبه.

أمعن النظر نحو ذلك الرجل محاولًا تبيّن ملامحه، ولكن أبى ظلام الليل أن يعاونه، فتحرك سريعًا ليهبط درجات السلم وقد أنساه غضبه إيقاظ صديقه لمعاونته، ليذهب إلى المطبخ ويُخرِج من أحد الأدراج سكينًا ويدفنه في طيات ملابسه، فيسارع بالخروج والاقتراب من الشخص الغامض بنفس متوعدة، وحين اقترب من موضع الرجل هدأ عقله عن ثورته، فور رؤيته لذلك الأب الذي جاءه بصغيره الغارق منذ أيام سابقة، والذي كان يقف في شرود بينما استندت "مجرفة" على الشجرة من جواره.

وقبل أن يأتي (جيوفاني) بتساؤلاته حول سبب مجيء والد الصغير أمام منزله، باغته الأخير بحديثه:

- "لقد انتظرت طويلًا أمام منزلك دون أن تقوى يداي على طرق بابك".

لم يفصح الرجل عن سبب إتيانه إلى منزل (جيوفاني) في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ليكون مطلبه الوحيد رفقة الشاب له، لم يكن (جيوفاني) يعلم إلى أين يريد اصطحابه، لكن كانت نظرات ذلك الأب الحازمة أقوى من أن يرفض اتباعه، ليهمَّ الاثنان بالرحيل نحو ذلك المسعى الغامض، وقد عزم (جيوفاني) على أمر أخير، ألا تُبارح سكينه موضعًا لها أينما ذهب.

* * *

وتحت ليل غاب عنه قمره، وقف الاثنان أمام بوابة مقابر ساحة (هاتكون فالي/Hatcon Valley)، ليعبرا بخطاهما تلك الأرض التي تعبت من عناء حمل الموتى في بطونها، تعثرت قدما (جيوفاني) عدة مرات من جهل خطاها في ظُلمة الليل المُعتم، متبعًا الرجل المُمسك بالمجرفة من أمامه. كان (جيوفاني) يظن في البداية أن الأمر يتعلق بالابن الراحل، ولكن تبدد ذلك الظن فور أن وجد الرجل يُكمل طريقه نحو المنطقة الشمالية للمقابر.. وبالتحديد نحو مدافن عائلة (جالفاني).

توجس الشاب حينئذٍ ليسأل الرجل الذي تقدم من أمامه:

- "لماذا أتيت بي إلى هنا؟".

التزم الرجل الصمت المطبق لدقائق مكملًا الطريق حتى وصل إلى وجهته، لتتوقف خطاه أمام شاهد القبر الخاص بالسيدة (هيلين)، حينها نظر (جيوفاني) إلى قبر والدته، ليُبصر تقلبات حديثة النبش في التربة، لتتسع عيناه رعبًا من هول ما يخشاه، فإذا به ينقض

جاثيًا فوق التربة بعينين تدمعان من الخوف، يحاول بيديه إزاحة التراب الذي يسكن النعش بأسفله، ليغرز الرجل بالمجرفة في الأرض ويُجاهد في معاونة الشاب في إزاحة تكدسات التراب هو الآخر.

دقائق قاسية أمضاها (جيوفاني) في الحفر بيديه العاريتين، لمعرفة ما قد حل بقبر والدته، فأخذ ينهش في جوف الأرض حتى بدأ يزيح بآخر حفنة من التراب، فيلوح له رؤية نعشها، فتزيح يداه بالتراب عن جوانب النعش، فيمسك أعلاه ليفتحه.

وما أن قام بفتح خشبة النعش، حتى سعل على الفور وقد طالت رائحة عضوية خانقة أنفه، لينجزع ويطيح بالغطاء عاليًا.. فإذا به يرى هول ما لم يكن يضع له من حُسبان.

كانت السيدة (هيلين) ترقد في تابوتها غارقة في روث البهائم، تقطعت أطرافها لتتفرق داخل نعشها، وقد تباعد رأسها جانبًا عن منبت عُنقها، ليُدفن وجهها في ذلك الدنس. نهض الشاب في ذهول غير مصدقٍ لما قد طال والدته من أذى، لينظر إلى الرجل الذي جاء بصحبته وقد أدرك في عقله بأن معرفة الرجل بما فعله أتباع تلك الطائفة بوالدته، لا تعني سوى أمر واحد.

تعثرت قدما (جيوفاني) في التراب وهو يحاول النهوض مندفعًا تجاه الرجل، والذي لم يمهمله الشاب الفرصة ليلعلمه بحقيقة الأمر الذي أراد لقاءه من أجله، فتراجع الأب الحزين بخطاه في توجس للوراء ليعلو الشاب سكينه في الهواء منقضًا به نحوه.

فإذ بالرجل يطيح خائفًا بالمجرفة المُمسِك بها نحو الشاب، فتسقط السكين من يده، لينقض (جيوفاني) على الفور نحو جسد خصمه فيحتضن خِصره، ويسقط الاثنان أرضًا، ليجلس من فوقه ويكيل له بطش قبضته الغاضبة، فترنح وجه عدوه جانبًا، بفمٍ دامٍ من هول قوتها ويتأوه من الألم، فانتفض الشاب من فوقه وسارع بالتقاط المجرفة المُلقاة جانبًا، ليقبض عليها مقاربًا إياه لعنق الرجل، بينما تُغالبه رغبة عارمة في الإطاحة برأسه عن منبتها.

حينها صفعه الأب المُسجى أرضًا بحديثه على الفور.

- "لقد أجحفت".

توقفت يدا (جيوفاني) عن إلحاق الموت لرقبة الأخير، الذي نظر نحوه مكملًا الحديث بنبرة امتزجت سخريتها بالحزن الذي بات لا يفارق قلبه:

- "لو كان للرب يدٌ لمددها لمساعدة ولدي الصغير، لو كان للرب يدٌ لكف الأذى عن اللحاق بطفل صغير، لا ذنب له في تلك الدنيا سوى المرح مع رفاقه.. لكم قضيت الليل في التضرع إلى الرب أن يحفظ لي ولدي بكل خير.. ولكن يبدو أن الرب لم يكن متواجدًا ليستمع لمناجاتي له في نهاية الأمر".

ثم دفع الرجل بجسده عن الأرض، ليهمّ بعد ذلك للنهوض من جثوته، مكملًا:

- "لقد جئت إليك فور علمي بقيام طائفتي باستكمال مسعاهم في تأريق موتاكم داخل قبورهم".

ليتقدم لمقاربة الشاب ويعود ليحدثه في هدوء:

- "لقد أبصرت بك الخير حين لاقيتك، فعلى عكس ما يتردد على ألسنة الآخرين، وجدت فيك شابًا يحاول في مسعاه مساعدة غيره ليس أكثر.. فبت على يقين بأنك لا تحمل في قلبك سوى الخير".

اغرورقت عينا (جيوفاني) بالدمع، بينما وقف صامتًا يُطالع جثمان والدته، يُقطِّع الذنب نفسه التي عجزت عن ردع الأذى عن والدته في قبرها، وقد لم يتوقع يومًا أن تُلاحق الطائفة أقربيه حتى وإن لم يكن لهم أي ذنب.

ليعود الرجل ويمسك بمجرفته من يد (جيوفاني) وهو يحدثه مواسيًا:

- "لقد طلبت مني يومًا أن أُحسن مثوى ولدي الأخير، وقد أتيت إليك اليوم لأرد لك الصنيع لتحسن مثوى والدتك في قبرها".

ظل (جيوفاني) يقف جامدًا دون قدرة على التحرك، ليغرز الرجل المجرفة في الأرض ويتركها من جواره، ويهم بالانكباب نحو تابوت العجوز، ويبدأ في إزاحة تكومات الدنس بعيدًا عن جثمانها، قاد عقل الشاب الحزين خطاه للانكفاء نحوها هو الآخر، ليتعاونا في إزاحة ذلك الروث، حتى بات النعش يخلو من دنسه في النهاية، فلا يتبقى بداخله سوى جسدها الهامد يجاوره انفصال أطرافه عنه.

لم تقو حينها يدا ولدها على الاقتراب من جثمانها الممزق، ليريحه الرجل من معاناته ويمسك بأطرافها ويضعها جانبًا منها، فيعاون الشاب بعد ذلك على النهوض من جثوه ويهم بغلق باب النعش، ليضرب بمجرفته في الأرض ويبدأ في ردم التراب من فوقه.. فلم تمر ثوانٍ حتى عاد الشاب ليندفع مجددًا نحو القبر، فيزيح التراب من فوق النعش، ويطيح بابه عاليًا مرة أخرى، لينكفئ نحو جثمان والدته.

التقط (جيوفاني) رأس والدته ليحيطها بين راحتي يديه، ولم يتمالك الرجفة التي اعترتهما وهو يقارب رأسها المُنفصل من وجهه ليقبله، وقد قطّع الحزن أوصال قلبه، فتنساب الدمع من وجنتيه حسرة لما حل بها، فيزيد من اقترابه منها حتى لامس جبينه وجهها،

ليهمس بأُذنيها بحديث خافت.. فيعلو صوت همساته من وسط أنين بكائه، فيستمع الرجل حينها لوعد (جيوفاني) لوالدته، فتلمع عيناه.. ويتمنى أن يُنفذ ذلك الوعد سريعًا قبل أن يهرم جسد ولده في قبره.

* * *

مُذكرات مجهول

ها قد أتى يوم المُحاكمة.. جلست في الصفوف الأولى بجانب زميلي نتبادل الحديث الحماسي، الذي ساعد على انقضاء وقت انتظارنا. وقف في الصفوف الأولى على مقربة مني المفتش (تشارلز) والقس (بِرهام) يتهامسان في الحديث، اختلست النظر نحوهما لأجد المفتش يُطالعني بيعنيه في هدوء، بينما استمر في حديثه، لا أعلم السبب وراء ذلك، لربما كان السبب هو كون تلك هي المرة الأولى التي يراني بها منذ فترة مضت، أو لربما كان السبب أنه لم يعتد رؤيتي بغير ملابس العمل الرسمية من قبل.

ابتسمت وأنا أُشيح بنظري بعيدًا عنه لأُكمل حديثي مع زميلي، دقائق مرت حتى دخل القاضي إلى قاعة المحكمة، فاعتدل الجميع في مجلسهم لهيبته الوقورة.. ليقرع بمطرقته الخشبية عدة مرات، فيتردد صدى صوتها في الأرجاء مُعلنةً عن موعد اقتراب الحساب.

كان السجين (فوستر) حينها يقف وراء القضبان مُكبلًا بالأغلال، وللمرة الأولى أبصرت الجمود في وجهه وهو ينظر تجاه والدة زوجته، الجالسة بخطوات على مقربة منه، وقد كانت تتراشق النظرات الغاضبة تجاهه، دون أن تتوقف شفتاها عن ترديد اللعنات له، بينما تحتضن ابنتيه الأخرتين نحوها.

تحركت السيدة فور استدعائها لمنصة الشهود، كشاهدة أولى لتُدلي بما تعرفه، قالت السيدة واسترسلت في حديثها ولم تأتِ

بجديد لا أعرفه مسبقًا، وقد ذرفت الدموع وتلعثمت كلماتها بمرارة حزنٍ بات يُمزقها إربًا.

وكزني حينها رفيق عملي من جانبي في ترقب لأومئ له بالبدء في عمله، فأمسك بقلم الفحم وبدأ في رسم ذلك المشهد من أمامنا؛ أمٍ غاضبة تشير إلى قاتل ابنتها الوحيدة بينما يجلس القاضي منشغلًا في الإصغاء لشهادتها.

عُدت لأتابع أحداث مُجريات المحاكمة، وقد تقدم صاحب النزل كشاهد ثاني؛ ليدلو بدلوه عما يعرفه، متوترًا في كلماته عما رآه ويعلمه، وقد لم يعتد القدوم إلى مثل هذا المكان من قبل، ليُزاح عن صدره حِمله الثقيل فور أن أمره القاضي بمغادرة منصة الشهود، وما أن اعتلى الشاهد الأخير المنصة حتى جلست متأهبًا للاستماع لأقواله.

أفصح حينها المفتش (تشارلز) عما قد رآه من السجين (فوستر) واعترافاته أثناء التحقيق معه، وعلى حد قوله أسفرت التحقيقات عن إقرار السجين بجريمته دون إبداء أي ندم عن جُرمه، تحدث أيضًا عن كون السجين دائم التمرد والشغب معللًا ذلك كسبب للكدمات التي طالت وجهه.

كانت شهادة الشهود وقتها بمثابة مسامير تُدَق في نعش (فوستر) الواحدة تلو الأخرى، نظرت نحوه لأجده صامتًا، مُنصب النظر نحو فتاتيه، فتشيح جدتهم بكفيها في غضب نظراتهما التي تشتاق كل ثوانٍ نحوه، وكزت رفيقي من جانبي لأهمس له

فيعود ليقلب صفحة رسمه ويأتي بالأخرى، فيشرع في رسم مشهد مُلاقاة وجه السجين لوجه صغيرتيه.

عُدت لأُكمل إنصاتي لشهادة المفتش، ابتسمت ساخرًا في قرارة نفسي لما أعلمه من بواطن الأمور، أعلم جيدًا بأن (تشارلز) يتمنى ألا يطول حبل المشنقة رقبة (فوستر)، فهكذا حدثه في آخر مرة تواجدت بها معهما داخل غرفة التحقيق، كان المفتش حينها يتوعد له كعادته بالكلمات واللكمات، راغمًا إياه على ألا يُنكر أي مما يُنسب إليه من تُهم حين يقف بين يدي العدالة.

وقد أعرب المفتش للسجين وقتها، برغبة آمر السجن بأن يُلاقي الموت شنقًا كعدلٍ لجُرمه، بينما كان هو يتمنى تخفيف العقوبة لكي يعود إليه فيذيقه من العذاب أهوالًا، حتى نهاية حياته التي أقسم أن تكون على يديه.

انتهت شهادة المفتش (تشارلز) ليقوم بالعودة للتمجلُس بجانب القس (بِرهام) الجالس في صمت منتبهًا لما هو آت، توجه القاضي للحديث إلى السجين وقد علت على وجهه نظرات الاشمئزاز من جُرم الأخير، فكانت تلك النظرات كفيلة بأن يعلم (فوستر) مُستقره الأخير، فما كان منه سوى أن لازم الصمت رفيقًا له.

وكزت صديقي مجددًا وأنا أُشير له نحو هيئة المُحلفين ليقلب في تأفف صفحة جديدة، ويبدأ في رسم مقاعد المُحلفين القريبة من مجلس القاضي. كانوا يتهامسون في الحديث بينما يتشاورون في أمر السجين، تتلفت نظراتهم نحوه وتنصت آذانهم لألسنة من

بجوارهم.. فتقتنع أذهانهم بقرارٍ واحد في النهاية.

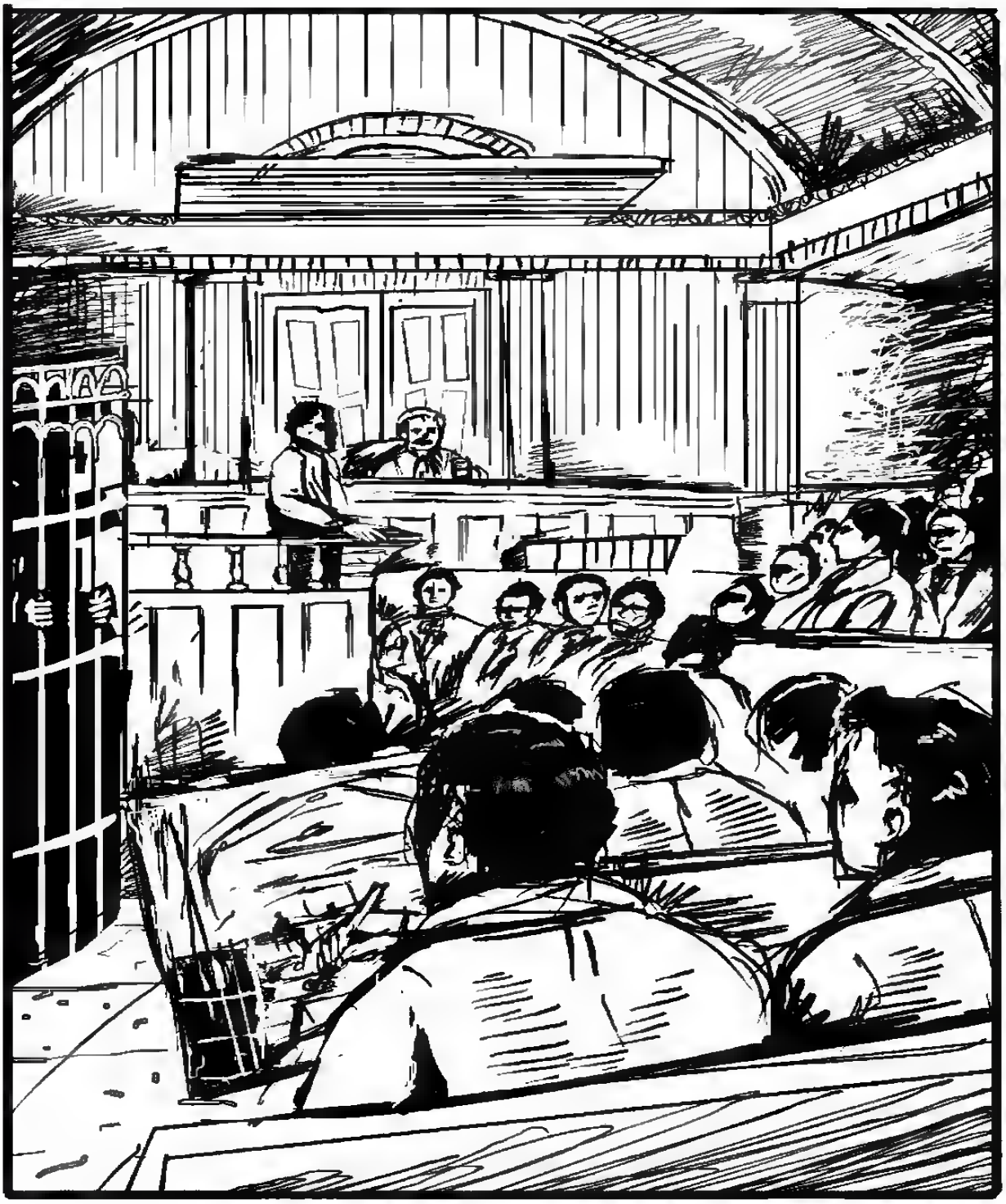

لم يستمر الأمر طويلًا، دقائق ليست بالكثيرة انتظر بها القاضي رأي المحلفين، والذي يبدو أنه قد حُسم تجاه السجين بالفعل،

منذ الإدلاء الأول لتلك الشاهدة الباكية، لينهض مُمثل المحلفين في قرارهم النهائي، فيُعلن عن تأييد الحكم بإدانة السجين عن تهمة القتل العمد لزوجته وصغيرتها، مُطالبًا بتطبيق أقصى العقوبة. كان (فوستر) مستمرًا في التحديق إلى فتاتيه في صمت مهيب، ليبدو الأمر وكأنه لم يستمع لما يتلوه القاضي من حديث عن القصاص الواجب الذي يستحقه لقاء فعلته الشنعاء، فتُلاقي مطرقة القاضي السطح من أمامه مُعلنًا نفاذ حكم الإعدام شنقًا.

نهض القاضي للمغادرة ليهمَّ الحضور بالقيام من أماكنهم، تُهمهم أفواههم وتتخبط تحركاتهم متجهين للخارج، توقفت لوهلة أتابع رحيل المتبقين.. تأملت ذهاب مفتش السجن وآمره وهما ينخرطان داخل الجمع الراحل، تأملت الجدة وهي تصطحب حفيدتيها للخارج دافنةً وجهيهما الباكيين في حضنها، دون أن تُشاركهما حزنيهما، تأملت حارس المحكمة وهو يدفع بجسد (فوستر) للمغادرة، دون أن تبتعد عيناه عن رؤية ابنتيه للمرة الأخيرة.

أفقت من تأملاتي فور أن اعترضت رؤى عيني رسومات صديقي الذي بدأ بعرضها عَليّ الواحدة تلو الأخرى، أخذت أقلب صفحاتها في تمعن، ثم أمسكت بالرسمة الأخيرة للشاهد الأخير.. كانت تلك الرسمة هي الأكثر تعبيرًا عن الظلم، كانت تلك الرسمة هي الأحق بأن تظهر للعلن. أومأ لي صديقي مُرجحًا قراري هو الآخر، لنتحرك سويًا للخارج، بينما تبادلنا الحديث عما هو قادم في عملنا.

مذكرتي العزيزة.. أعتذر عن تغيبي لفترة طويلة عن لقائك،

فأرجو ألا تعتريكي الغيرة نحو عشيقتي الجديدة التي أصبحت تُلازمني تلك الأيام، فقد باتت تُشاركني أفكاري وآرائي في الفترة الحالية، أخُط بها ما أكتبه من تحقيق وحقائق، يُطالعها الآخرون، فيتابعوا ما أقُصه عليهم في شغف.

كدت أنسى إطلاعك على أمر أثق بأنه سوف يبعث البهجة في قلبك ويغفر لي قسوة هجري لك.. لقد تركت عملي السابق لأُطارد حلمًا قديمًا لي.. فها أنا الآن أعمل كصحفي بجريدة (برنارد نيوز/ Bernad News).(1)

---

(1) تم إصدار الحكم بالإعدام شنقًا للمتهم في يوم 18 يناير عام 1803، على أن يُقام التنفيذ بمنصة الإعدام المتواجدة بالبوابة التاسعة من بوابات مدينة لندن.

المرجع: الوثائق الخاصة بجريدة (نيو جيت كاليندر/New Gate Calendar)

الفصل الحادي عشر

(أمل وشيك)

مضت الأشهر، ليحل الحزن ضيفًا دائمًا بمنزل آل (جالفاني)، يغرق صاحبه في نوم عميق طيلة النهار مستسلمًا لحزن لا ينتهي، وقد غادر (سباستيان) المنزل في نهاية الأمر منصاعًا لإصرار طلب صديقة بذلك، دون أن يفهم له سبب، تاركًا إياه في وحدته. كان (جيوفاني) يقضي الليل تائهًا في عُزلة عقله، يتلهف الأنظار نحو طيف والدته، وقلما بات يراه ينزوي طيلة وقت صحوِه داخل معمله عاكفًا على عمله، عازمًا على إيفاء وعدٍ أقسم به سابقًا.

كان اليوم هو أول الأيام التي يأتي بها (فولتا) لزيارته بعد تلك الحادثة الأخيرة، تعجب حينها مما رآه من يأس وإحباط تملك ذلك الشاب، ليُخرِج (فولتا) من جيب معطفه ما قد أطل على حياة الأخير ببارقة أمل جديدة، أمسك (جيوفاني) بمظروفٍ مُغلق بختم الأكاديمية الملكية للعلوم؛ ليفتحه متلهفًا ويطالع أوراقه وما تحتويه سطورها.

فما لم يكن يعلمه (جيوفاني) حينها، هو سعي (فولتا) لتحقيق غاية الشاب التي أفصح عنها له قبل مغادرته لمنزل (فولتا) في السابق، وقد كان يأمل (جيوفاني) في الحصول على جسد كامل مُعافى ليُجري عليه التجربة القادمة، كان الأمر عصيًا على طبيب حديث التخرج مثل (جيوفاني) للتقدم للأكاديمية العلمية بطلب كهذا، ولكن يبدو أن شراكته مع ذلك العالِم بالغ النفوذ قد أتت

بثمارها.

ليأتي رد الأكاديمية بالموافقة على طلب (فولتا)، مُرفقًا معه أوراق إحالة الطلب من المحكمة لتسليم إحدى حالات الإعدام، قادمة التنفيذ في سجن المقاطعة، ليأتي في آخر سطورها موعد تنفيذ حكم الإعدام المُقبل بعد عشرة أيام من تاريخه، فيُكتب بعد ذلك اسم السجين المُراد تسليم جثمانه بعد موته.. السجين/ ج.(فوستر).

مرّ يومان على قدوم تلك الرسالة التي أحيّت الأمل من جديد في عقل الطبيب الشاب، لتقف العربة التي تقِل (فولتا) و(جيوفاني) أمام سجن سانت ريمون، فتحرك الاثنان تجاه بوابتها المهيبة. تمعّن كبير الحرس في الأوراق من أمامه قبل أن يشير بالموافقة على دلوفهما، ليقتادهما أحد الحرس داخل طُرقات ذلك السجن.

وقعت عيناهما على زنازين عدة تتراص يمني ويسرى، يسكنها من جنت أيديهم على جُرمها، تُطالع الأنظار مرور بِزاتهما المُنمقة من أمام قضبان زنازينهم دون أن يعلم الكثير عن قدومهما من شأن.. بينما كان للبعض سابق معرفة، بسبب إتيان أمثالهما إلى مثل هذا المكان.

توقف الحارس عند باب القس (بِرهام) ليطلب انتظارهما بالخارج، فيدخل مُصطحبًا أمر المحكمة ليمر وقت ليس بالطويل ويؤذن لهما بالدخول، كانت النظرات الغاضبة للقس لا تُبارح سطور الأوراق المُمسِك بها، غير عابئ بالنظر نحو اقترابهما من مكتبه، أشاح القس (بِرهام) ببصره عن الأوراق، لينظر إلى الاسفل نحو سطح مكتبه للحظات مواريًا غضبه، ثم نهض من مقعده ممسكًا بالأوراق في يده

وهو يلوّح بها في الهواء، متحدثًا:

- "تجربة جديدة للعلم المزعوم وعَليّ تنفيذها دون عصيان.. ودون أن أسترعي همًا لعصيان الرب بمساعدتي لكما".

تبادل الآخران النظرات الصامتة في تعجب من حديث الأخير، الذي قد أكمل على الفور حديثه إلى (جيوفاني):

- "أنت هو خليف عائلة جالفاني.. أليس كذلك؟".

ثم تجلت السخرية بصوته، مستطردًا:

- "تُرى ما الذي تتوقع تحقيقه؟ هل يأتي اليوم الذي أُصادف فيه رؤية (فوستر) بعد موته جالسًا بجواري في إحدى المطاعم؟".

ثم علت ضحكاته المستهزئة:

- "ومن يدري؟ فلربما يُجالسني طاولتي حينذاك، ونتحدث سويًا عن المستقبل الذي ينتظره بحياته الجديدة".

تقدم (فولتا) من جانب رفيقه ليقترب من القس، فيتلقف الأوراق من يده وينظر نحوه بوعيد، ليجيبه على الفور:

- "ليس لنا من إلزام للاستماع لحديثك هذا.. نحن هنا لإيصال أمر المحكمة لك، وعليك بتنفيذه".

ارتسمت حينها ابتسامة مُجبرة على وجه القس، ليعلو صوته مناديًا الحارس من الخارج آمرًا إياه باصطحاب السيدين إلى غرفة المفتش (تشارلز)، ليلتف جانبًا بعد رحيلهما، ويصدا صوت طرق يده الغاضبة

على سطح مكتبه، ليجثو القس على ركبتيه بعد ذلك، ويخرج صليبه المستتر تحت قنسوته، فيمسك به بكلتا يديه، فتهتز يداه ويُرتل فوه في تضرع لربه، وقد كادت عيناه أن تبوء بالدمع وهو يُناجي مسامحته له، غافرًا ما سوف تقترفه يداه المُكرهتان من مساعدة لأولئك العُصاة.

وفي داخل غرفة التحقيق جلس السيدان أمام مكتب المفتش (تشارلز) الذي أخذ يطالع أمر المحكمة من بين يديه، بعينين تضّجان بالغضب وفمٍ يُنغصه مرارة الانصياع، ليفتح إحدى أدراج مكتبه ويطيح بورقة من داخله نحوهما طالبًا منهما توضيح مكان تسليم جثمان السجين، ازدادت قرقعة نعليه مع غضب عقله وهو ينظر إلى الاثنين، بينما أخذ (جيوفاني) يخط بها بقلمه، لتأتي لحظات من الصمت تلاشت سريعًا فور أن بادر بالحديث إلى (جيوفاني):

- "هل تعلم ما يُثلِج صدري الآن؟ فحتى وإن نجحت تجربتك المزعومة، ففي النهاية سوف تبوء بالفشل".

ثم علت بعينيه نظرات التحدي نحو السيدين، مكملًا:

- "إن القانون الذي يُلزمني بمساعدتكما، هو ما يلزمني على التواجد وقت القيام بتلك التجربة، فإذا حالف القدر (فوستر) لتعلو أنفاسه بصدره مجددًا، فسوف أكون متواجدًا حينها لاصطحابه لحبل المشنقة مرة أخرى"[7].

ابتسم (جيوفاني) وقد التزم الصمت دون أن يُبالي لحديث المفتش، ليعطيه الورقة بعد الانتهاء من كتابته بها، فيمسك الأخير

بالورقة من يده لكي يعيدها إلى درج مكتبه، وقبل أن يعيدها لموضعها توقفت يداه عن فعلتها فور أن باغته الطبيب الشاب بالحديث:

- "أريد رؤية السجين (فوستر) قبل مغادرتي رجاءً".

نظر (تشارلز) إليه مستخفًا بمطلبه، ليجيبه:

- "هل تظن بأن كلماتك المُهذبة سوف تجعلني أنصاع لطلبك هذا؟".

فمال (فولتا) بجسده ليستند بيده إلى سطح المكتب، محدثًا إياه في إصرار:

- "لن يكون عصيّ علينا العودة مرة أخرى بموافقة من المحكمة، للمجيء مرات عدة لدراسة حالة السجين الصحية قبل تنفيذ الحكم.. إنني أعلم جيدًا أنك لا تطيق رؤيتنا مجددًا، ولذلك رجاءً.. أن تجعل زيارتنا لك هي الأخيرة".

نظر إليه المفتش بكظمة غيظ تجلت على وجهه لثوانٍ، لينادي على الحارس بالخارج لاصطحابهما سامحًا برؤيتهما للسجين، فيصطحبهما الحارس من خلال طُرقات السجن، حتى وصلا إلى زنزانة المحكومين بالإعدام، والتي يتواجد بداخل قضبانها سجينان حانت نهايتهما في القريب، لينظر الحارس نحو (فوستر) المنزوي بجانب إحدى الجدران بالداخل في عُزلة كعادته، آمرًا إياه بالتقدم لرؤية زائريه، نهض السجين حينها بخُطى حذرة ونظرات خاشية من وراء القضبان، ليقف في مواجهة (جيوفاني) متأملًا ملابسه المنمقة، فيتقدم الأخير لمقاربته وجهًا لوجه، لتمر لحظات قليلة من

مواجهتهما، قبل أن يبدأ الشاب بالحديث:

- "مرحبًا (فوستر)".

تمهل السجين في حديثه متمليًا بوجه (جيوفاني) قبل أن يجيبه:

- "من أنت؟".

تجاهل (جيوفاني) السؤال، ليكمل حديثه:

- "لقد قرأت عن إدانتك في إحدى الصُحف في السابق.. تُرى هل أقدمت يداك حقًا على خطيئتها؟".

أمسك (فوستر) بيديه القضبان، ليقترب من وجهه ويعيد عليه سؤاله:

- "من أنت؟".

فأجابه (جيوفاني) وقد اقترب منه هو الآخر:

- "أنا من يتحدث الجميع عن جنونه.. وقريبًا سوف تكون السبيل لبراءتي من ذلك الجنون".

قبض (جيوفاني) بيده على يد (فوستر) بغتة، وقد اهتدى بصره إلى الجرح الغائر بمعصم السجين، ليدرك الأخير نظر الشاب إلى يده، فيُسارع بمحاولة إبعادها عنه، لتتشبث يد (جيوفاني) بقبضته متمعنًا النظر بذلك الجرح قبل أن يفلت يد (فوستر).. فيعاود الطبيب الشاب الحديث وهو يتراجع بخطاه للخلف باسطًا يديه في الهواء.

- "فلتتمسك بالحياة يا صديقي ولا تدع رغبة الحياة تفارقك حتى

في لحظاتك الأخيرة، فربما تكون يداي تلك هي السبيل في عودتها لك مرة أخرى".

أطل (جيوفاني) بابتسامة مودِعة، ليتركه ويهم بالتحرك للمغادرة بمرافقة (فولتا)، حينها التصق وجه (فوستر) بثنايات القضبان، ليحدثه بكلمات أخيرة قبل مغادرته، كلمات أوشك عقله على نسيانها.

- "أنا لم أقتل أحدًا".

توقف (جيوفاني) عن المُضي في طريقه، ليلتفت إليه مرة أخرى، ويجيبه:

- "تذكر هذا الوجه جيدًا يا صديقي، فربما يكون هو الوجه الذي سوف تُبصره مجددًا في القريب".

ثم عاد بالتحرك مبتعدًا ليتابعه السجين بنظراته، وقد التزم الصمت لوهلة قبل أن يعود ويُجالس وحدة حزنه منتظرًا أيامه المعدودة، حتى يأتي موعده مع عدالة القدر.

عاد (جيوفاني) برفقة (فولتا) بالعربة متوجهين إلى منزل عائلة (جالفاني)، عاقدًا العزم على أن يقضيا أيامهما التالية حتى موعد الإعدام مُنكبان على تجاربهما، وقد أوشك اليوم المنتظر على القدوم.

* * *

الفصل الثاني عشر

(منصة الإعدام)

حلَّ اليوم المنُتظر.. أفاق (فوستر) وزميله الآخر من نومهما إثر نغز الحرس بأحذيتهم لجسديهما، ليتأنى عقله الغافل في استيعاب ما يحدث، فلا تمر لحظات حتى تحرك حارسان ليقبضا على ذراعيه ويهما بإيقافه، نظر حينها نحو زميله المُقاد للخارج، ليدفعه أحد الحراس آمرًا إياه بالتحرك هو الآخر واتباع زميله، لم يرَ (فوستر) تلك الممرات التي عبر بها حينها سوى مرة واحدة، حينما قدِم لهذا السجن للمرة الأولى.. فأدرك على الفور أنه على وشك الخروج من جدران هذا السجن دون رجعة إليه.

وفور خروجهما من البوابة الرئيسة بصحبة حُراسهم، رفع (فوستر) هامته تجاه السماء ليتلذذ بضياءٍ يعلم جيدًا في قلبه أنه لن يراها مجددًا، كانت تقف أمامه عربتان تتبعان الشرطة، فدفعه أحدهم للأمام للتحرك نحو العربة الأخيرة، لاح لبصر (فوستر) العابر من جوار العربة الأولى حينها من كان يجلس بداخلها، وشعور السعادة لا يفارقه، لتتلاقى عينيه بعيني المفتش الجالس بوجه تجلَّت السعادة به.

كانت نظرات (تشارلز) له أشد وعيدًا من حبل المشنقة، تتسع عيناه فرحًا وكأن اليوم هو يوم عرس طال الشوق له، منتظرًا مرور الوقت الذي يرى جسد السجين معلقًا في الهواء، فيتحاشى (فوستر) النظر إليه سريعًا، ويهم بالصعود للعربة مع رفيقه الآخر.

وأثناء تحرك العربة في الطريق جلس (فوستر) صامتًا دون أن تساوره أي مشاعر، تتأمل عيناه السجين الآخر الجالس بجانبه. ليت ذلك السجين يحظى بلحظة واحدة من سكون عقله، كان يجلس حينها باكيًا كطفل صغير رحل عنوة عن كنف والديه، فأطال (فوستر) بيده نحوه ليقبض على ركبته مؤازرًا حزنه، فينظر السجين نحوه محاولًا كبح جماح دموعه فتستمر في عصيانها له، حينها ترك (فوستر) زميله الغارق في خوفه لينظر جانبًا صوب الطريق، وقد تتابعت من وراء العربة خطوط آثار عجلاتها كساعة رملية تنساب الرمال منها في وداع أخير.

تحركت العربتان بعد ذلك قاصدتين وجهتهما القادمة نحو ساحة (بروتشBroach/) العامة، والتي سوف يُقام بها تنفيذ حكم إعدامهما القريب. نُصبت بها خشبة الإعدام في الصباح الباكر، ليحتشد العامة لحضورها كأحد الاحتفالات، بينما يحيطهم حراس منصة الإعدام مانعين بعضهم من اعتلائها واللهو مع صغارهم فوقها، ليزداد بعد ذلك صياح الحشد الفرِح فور قدوم العربتين نحوهما، مُهللين في لهفة لما لا يستطيعون صبرًا لمشاهدته.

تَرجّل السجينان من العربة ليصطحبهما الحراس ويقفوا بجوار منصة الإعدام، ازداد صياح الحشد في سعادة، ليُسكِن الرعب في قلب السجين الآخر لـ (فوستر)، بينما وقف (فوستر) متجاهلًا صيحاتهم، يتأمل تلك المنصة الخشبية المهيبة التي تتعالى درجات سلمها المؤدي للهلاك الأخير.

كانت منصة الإعدام منصوبًا فوق سطحها خشبة عرضية، توّج

منتصفها بحبل خشنٍ، تتدلى بنهايته عقدة سميكة لا ترد للموت مطلبًا. يقف على سطح تلك المنصة مُنفذ الأحكام، والمبعوث بأمر من المحكمة، يُطالع الأوراق في يده استعدادًا لخطبته القادمة، بينما يجاوره ببضع خطوات الجلاد المُتلهف لتنفيذ مهمته القادمة.

وقف الجلاد يُطالع السجينين بعينين خبت المشاعر بهما من قسوة ما قد اعتاد عمله، يقبض بيديه على ذراع خشبية طويلة، ينصاع منتصف سطح المنصة لإذنها بالانزياح حينما تشاء.. ليقبض عليها الجلاد آبيًا تركها حتى وإن لم يحن الأوان بعد.

تحرك المفتش (تشارلز) للصعود للمنصة ليقف بجانب مُنفذ الأحكام مهمهمًا بحديث خافت نحوه، لتمر لحظات فينظر مُنفذ الأحكام إلى أوراقه ويعلو صوته باسم السجين الموعود بالشنق أولًا، تأمل (فوستر) الحراس وهم يجذبون رفيقه الآخر من جواره، فتململ السجين بجسده في خوف نافرًا دفعات أيديهم له، لتقسوا عليه تلك الأيدي وتقوده مُكرهًا للتحرك قُدمًا.

وقف السجين على المنصة ينظر في فزع إلى الحشد وتهليلاته المستهجنة له، فعلا بعد ذلك صوت مُنفذ الأحكام، وبدأ في إلقاء خطبته عن جرم ذلك السجين، وما يستحقه من جزاء، ازداد بكاء السجين مع كل كلمه يتلوها ذلك الرجل، وقد بدأ أحد الحرس في توثيق يديه من خلفه، بينما انكفأ آخران لإحكام وثاق قدميه، ليبيت عاجزًا عن التملص قيد إنملة في مواجهة مصيره القادم.

صمت مُنفذ الأحكام عن خطبته بعد الأنتهاء منها، ليتحرك أحد

الحراس صوب السجين، ممسكًا بغطاء قماشي أسود اللون ويضعه فوق رأسه، فلا يبصر السجين سوى ظُلمة متوعِدة، فيزداد بكاؤه ويندلع الخوف بداخله، فلا تحجب مثانته ذعرها.

ضحكات هيستيرية أصابت الحشد الصاخب، أنكفأ بعضهم من كثرة ضحكاتهم، ليستند آخرون على اكتاف أصدقائهم في سخرية لما يرونه، بينما مالت بعض النساء تجاه أزواجهم هامسات بما حدث للتو، يشيرون بأيديهم صوب سروال السجين الذي أخذ الماء في اتساع بقعته به.

ارتجف عقل السجين في ظُلمته، فور ملامسة أصابع قدميه للماء المنساب نحوهما، ليزداد ارتعاش جسده من هول الترقب للحظات الأخيرة، وقد بدأ الحبل يحيط برقبته، لتشتد يد الحارس في وثاقها، فيتلفح الحبل برقبة السجين كثعبان يأبى ترك فريسته، لتتبدل أنفاسه الباكية بأنفاس تُسارع الشهيق في شوق أخير، لنسمات الهواء المفارقة في القريب.

أتت الثواني كسنوات عصى مرورها على عقل ذلك السجين، لتستمع أُذناه بعد ذلك لصوت تحرك المقبض الخشبي المتحشرج من جواره، فيأتي انصياع المقبض ليد الجلاد بانصياع السطح من أسفل قدميه، فيُشق إلى نصفين وينزاح خشبه للأسفل على الفور.

هوى جسد السجين إلى الأسفل ليتراخى حبل المشنقة في السقوط معه، فيعود الحبل ليشد من أزره حينها آبيًا الانزياح أكثر من ذلك، لتُكسر رقبة السجين على الفور ويتراخى جسده في

الهواء، فتُقارب قدماه ملامسة الأرض دون أن تطأ لها موطنًا، فتعلو الصياحات وتُطاح الأيدي في الهواء في سعادة لإتيان الموت بوعيده.

تحرك بعد ذلك اثنان من الحرس نحوه، ليرفع أحدهما من الجسد المُزهق للروح، بينما أطالت يدا الثاني الحبل، فيحلّ وثاقه عن رقبة السجين استعدادًا لتقدم السجين الأخير لمنصة الإعدام، ليقوم الحرس بدفع (فوستر) للتقدم، فإذا بـ (فوستر) يدفع أيدي حراسه عن انقياده نحوها عازمًا على أن يتقدم بمفرده، نظر المفتش (تشارلز) نحوه ساخرًا ليشير بيده للحرس ليتركوا السجين وشأنه، لتبدأ خطاه بالصعود للأعلى شاخصًا البصر نحو المفتش بنظرات أبت أن تهابه في لحظاتها الأخيرة، وقد لم يعد في يد المفتش القدرة على إيذائه مجددًا بعد الآن.

وقف (فوستر) متوسطًا السطح المتوعِد بانفراجة قريبة، ليبدأ مُنفذ الأحكام بإلقاء خطابه مرة أخرى، بينما بدأ الحرس بتوثيق يديه وقدميه، راقب (فوستر) حينها الوجوه المترقبة لموته، ما بين همسات خافتة وصياح عبثي عن استحقاقه لنهايته، ليهتدي بصره إلى تحرك سيدة عجوز للصفوف الأولى تقف بصحبة صغيرتين، بينما احتضنتهما بعينين تملؤهما الشماتة في ما هو مُنتظر، ملأت الدموع جفنيه وهو يرى صغيرتيه تتلفتان الأنظار في خوف بين جموع الواقفين، لتنظر إحداهن نحوه بعد ذلك، فتُعلي بندائها إليه، فيُدفن صوتها وسط الهتافات الصاخبة نحو والدها.

انهمرت الدموع على وجنتي (فوستر) ناظرًا نحوهما، وقد مر الوقت عليه دون أن يدرك انتهاء منفذ الإحكام من إلقاء خطبته،

وقد كانت رؤية صغيرتيه لموته بمثابة الطعنة الأخيرة لقلبه النابض بين ضلوعه، فنظر حينها نحو فتاتيه ليحاول فمه المُتلعثم في لعابه توجيه رسالة أخيرة لهما؛ رسالة بُترت أولى حروفها فور أن أحاطت برأسه قماشة الموت المتوشح بالسواد.

حاول التمعن في النظر من بين خيوط قماشها نحو ضوء السماء للمرة الأخيرة، ليغمض عينيه بعد ذلك متمسكًا بذكرى رؤيتهما منذ لحظات ماضية، آبيًا ترك تلك الذكرى من عقله للحظة واحدة.. أخذ حينها أنفاسًا مشتاقة للهواء فور أن أحاط الحبل بعنقه، فتمر الثواني كضهر يأبى المُضي، ليقف منتظرًا تنفيذ الجلاد للحكم الأخير دون إتيانه، وكأن ذلك الأخير يتلذذ بتعذيب روحه المُفارقة في القريب.

أطبق (فوستر) جفنيه رغمًا عنه فور سماع صوت انسياق المقبض الخشبي نحو موضعة القادم، فيأتي لسمعه زحزحة متمهلة للمقبض.. تبعها بعد ذلك انفراج بطيء للسطح من تحت قدميه.

انسابت قدما (فوستر) من على السطح في تباطؤ نحو الأرض، وقد أبت الجاذبية حينها في جذب جسده لهاويتها إثر انجرافه الهادئ نحوها، ليشتد وثاق الحبل على عنقه في ألم شديد ويحبس الهواء داخل حلقه، حاول عقله المفزوع تحريك يديه لدفع الألم عنه، فأبى وثاقها في أن يحل لهما من فِعلة، لتنتفض قدماه ذعرًا فلا يتاح لها من حركة داخل خِناقها. انتفض جسد (فوستر) مرات عدة، حاول بها الشهيق دون جدوى.. ليتدلى جسده كدمية مُعلقة في الهواء.

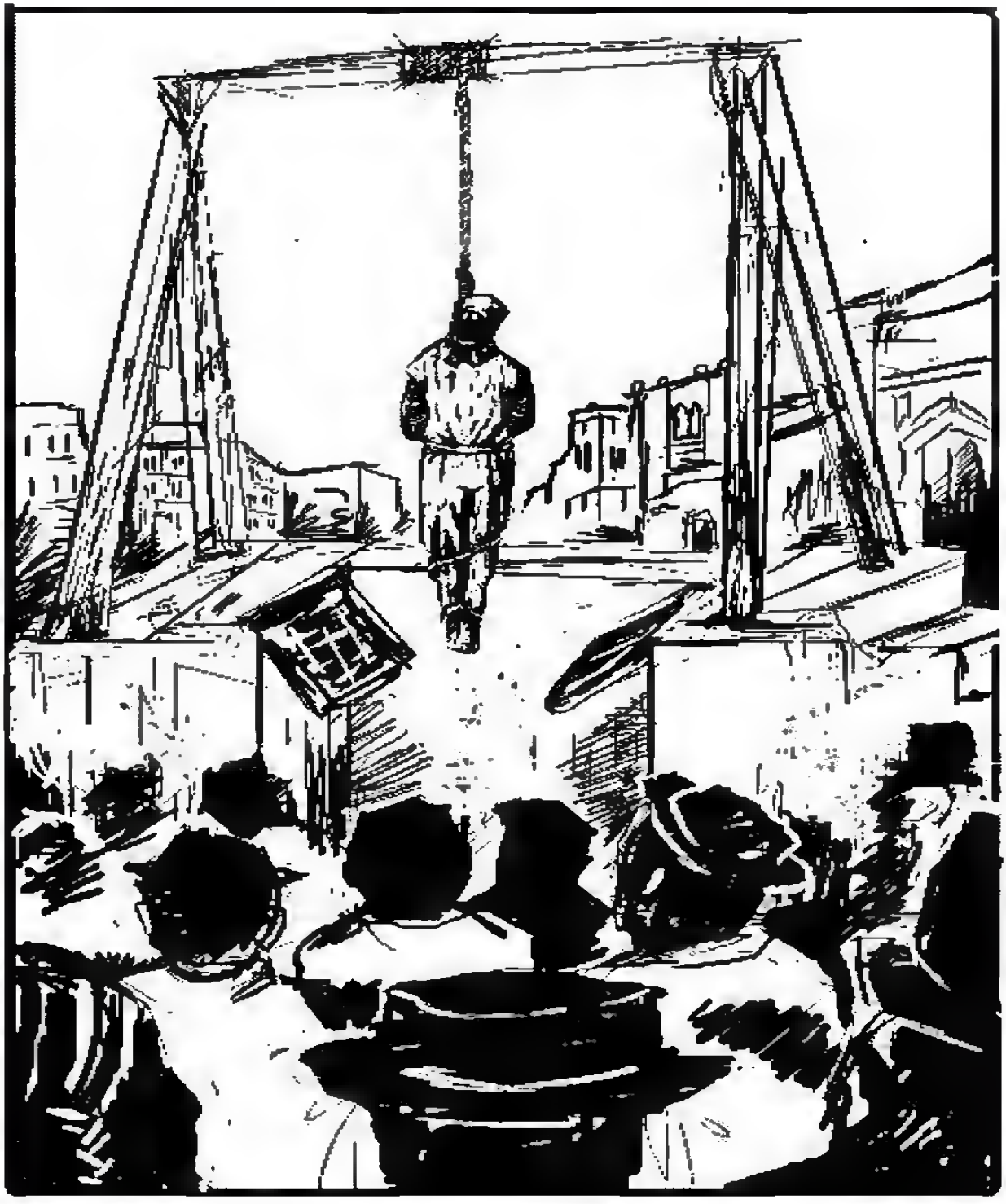

اتسعت مقلتاه رعبًا من رؤيته للموت يقف أمامه مبتسمًا دون أن يُقاربه، لتمر ثوانٍ ويُقدم الموت على مُقابلة روحه في النهاية، بعد أن أذاقه من العذاب أمرّه، لتهدأ انتفاضات جسده رويدًا، وتقل خفقات

صدره مودعة أنفاسه للأبد، فتسكن تململات جسده المُعلق في الهواء بعد ذلك دون حركة.

عاد الحشد لهتافاته الفرِحة مجددًا مُهللين في سعادة لإحقاق عدالة السماء نحو عُصاة الأرض، فازدادت هتافاتهم فور أن تحرك حارسان نحو جثمان السجين ليرفعا جسده ويُسكناه أرضًا، فتحرك المفتش (تشارلز) بعد ذلك للأمام ليقف عند عتبة السطح المُنفرِج، ناظرًا نحو جثمان (فوستر) بالأسفل والسعادة تملأ قلبه، ابتسم في قرارة نفسه حين تذكر المطلب الأخير لـ (جيوفاني) قبل مغادرته لغرفة التحقيق الخاصة به.

فعلى الرغم من تنفيذه مكرهًا لرغبات (جيوفاني) السابقة، إلا أنه كان سعيدًا بتنفيذ رغبة الشاب الأخيرة بنفسٍ راضية، فقد كانت توصية (جيوفاني) حينها، بألا يتهشم عُنق السجين خِشية أن يتضرر جسده فيعجز عن القيام بتجربته، لم يكن ليريد (تشارلز) أن تفشل تلك التجربة على الإطلاق، فربما تكون تلك التجربة هي السبيل حقًا لعودة (فوستر) للحياة مجددًا، وحينها.. سوف يُسر بالتواجد بجانبه ليقوده إلى خشبة الإعدام تلك مرة أخرى.(1)

* * *

---

(1) أجرت جريدة "BBC Knowldge" الوثائقية تحقيقًا مُفصّلًا حول جريمة السجين (ج.فوستر)، لتقوم بعد مرور سنوات من موته بمقابلة بعض من أصدقاء زوجته الراحلة، وقد أفصح أصدقاؤها عن كونها كانت تُعاني من ميول انتحارية

شديدة في الآونة الأخيرة من حياتها، حيث كانت دائمة التحدث عن فكرة إزهاق روحها هي وصغيراتها، ليُقفل الستار عن ذلك التحقيق دون أن يعلم أحد الحقيقة وراء حادث موتها.

مرجع التحقيق في وفاة الزوجة: وثائق (BBC Kowledge) الخاصة بالتحقيق في جريمة قتل المدعو (ج.فوستر) لأسرته.

الفصل قبل الأخير

(يوم الدينونة)[8]

حرصت الأكاديمية الملكية بلندن على أن تحتضن تجربة (جيوفاني) بعد دراسة الطلب السابق المُقدم من العالِم (فولتا) لهم. "تجربة أولى لمحاولة بعث الحياة مجددًا"، أثار الإعلان عنها جدلًا واسعًا في الأيام السابقة، حتى جاء اليوم الذي سيواجه فيه العلِم إرادته المغايرة لمشيئة الخالق، لتُقام التجربة على مرأى ومسمع من الجميع داخل أكاديمية (هاملتون(Hamilton / للمعارض العلمية، ذلك الصرح الذي يحتضن عروض أهم التجارب والاكتشافات العلمية في كنفه.

وبعد مرور ثلاثة أيام من تنفيذ الحكم السابق للسجين، ومن أمام بوابة الأكاديمية، وقفت العربات التي تقل حضور ذلك العرض العلمي، يترجل منها نُخبة من العلماء وصفوة المجتمع ينتظرون دورهم للدخول، مؤكدين حرصهم لحضور تلك التجربة ورؤية صاحبها الذي شاع عنه الجنون، يمرون في انتظام من بين ممرات الشرطة المُصطفة على جانبي الطريق المؤدي للداخل.

ذاكرين أسماءهم على الحرس المسؤلين عن السماح بدخولهم، فيؤذن لهم بالمرور لتتردد خطاهم المتقدمة للداخل، بينما تشمئز نظراتهم تجاه حشود العامة المُعارضة لتلك التجربة، التي تجتمع من حولهم لتشجب ما هو مُقبل على الحدوث بعد قليل.

ومن داخل كبرى قاعات الأكاديمية اصطفت المقاعد تباعًا، تزدحم

بضيوفها وهم يتخافتون الحديث بينما تطالع أعينهم في ترقب خشبة العرض. كانت تلك الخشبة المواجهة لهم أقرب لخشبات المسارح الكبيرة، يتوسطها مقعدٌ سُلطت عليه الأضواء لتتضح رؤياه للجميع، ومن جوار ذلك المقعد تواجدت مُعدة ضخمة الحجم، تعجز الأعين المُتلهفة عن تبينها، من خلف القماش الذي أحاط بها.

لم يكن الترقب الشاغل للنفوس لذلك الحدث من نصيب أولئك الضيوف المتلهفين وحدهم، بل كان هنالك من هو أشد ترقب عن البقية، كان القس (بِرهام) يقف جانبًا في كواليس ذلك المسرح برفقة المفتش، مُصاحبين لعناصر الشرطة بأمر من المحكمة العليا للقبض على (فوستر) وإحالته للإعدام مجددًا، في حال نجاح تلك التجربة المزعومة.

كِلاهما كان ينتظر تلك التجربة بصبر يكاد ينفد من صدورهما، كان القس (بِرهام) حينها يأمل بأن تُستجاب دعواته وتبوء التجربة بالفشل، فتنتصر إرادة الرب التي لا راد لها، بينما كان يأمل المفتش (تشارلز) أن ينتصر العلِم في صحوة (فوستر) مجددًا ليكون في انتظاره، متمنيًا اللحظة التي يفيق بها (فوستر) من غفوة موته، لتتلاقي أعينهما مجددًا.

لم يمر وقت طويل حتى صمتت الأفواه المتهامسة عن الحديث، فور دلوف الطبيب الشاب إلى خشبة المسرح وبصحبته العالِم (فولتا) ورفيقه (أندرسون)، ليتحرك الثلاثة متجهين صوب الجهاز الكهربائي، ليقوم (فولتا) و(أندرسون) بإزاحة القماش عنه، فيظهر للأعين المُتلهفة ذلك الجهاز الذي نال القِلة القليلة حظوة رؤياه من

قبل.

كان ذلك الجهاز مهيب في طلته، مُثبتًا به أقراص معدنية من النحاس والزنك، مغمورة في محلول كيميائي يعمل عن طريق تحويل الطاقة الكيميائية للطاقة الكهربائية، ليُطلق تفاعلاته الكيميائية بداخله إلى إلكترونات النحاس والزنك، مولدًا شحناته الكهربائية، فيُلاح لذلك الجمع الجهاز الذي زعم من رأوه سابقًا، على قدرته في تكوين شحنات كهربائية تُقارب قوتها صواعق السماء.

علت حينئذٍ تهامسات الزائرين في دهشة وهم يطالعون ذلك الجهاز، فالتفت (جيوفاني) حينها نحوهم ليملي بصره بتلك الحشود التي أتت لمشاهدة تجربته العلمية، كادت نظراته الفرحِة أن تفقده هيبة وقاره، وقد تبادر إلى ذهنه ذلك اليوم الذي كان يأمل في إتيانه ويقف أمام جمع العلماء كنِد لا يستهان به، فتمر لحظاتٍ من تأمله للجمع، حتى أشاح ببصره جانبًا ليرفع يده للأعلى.. فيأتي ملبيا نداءه.

دلف حينها للداخل اثنان من مُعاوني التمريض يدفعان بطاولة خشبية للتحرك نحو الأمام، يتمدد من فوقها جثمان مُغطى بملاءة بيضاء، يعلم الجميع كنية من يسكن أسفلها دون رؤياه، توقفت عجلات الطاولة بجوار المقعد المتوسط لخشبة العرض، فسارع مُعاونا التمريض بعد ذلك في العودة وإحضار طاولة صغيرة، يتراص فوقها الأدوات الطبية المستخدمة في التجربة، ليترك الاثنان الطاولة ويقفا جوارها على أهبة الاستعداد لأوامر الطبيب القادمة.

تحرك (جيوفاني) إلى الطاولة والجثة المستلقاه فوقها، فأطال النظر نحو ثنايات قماشها لبضع لحظات، ثم أزاح بطرفيه ليتطاير الذباب من أسفله، وقد عرف لذلك الجثمان الذي لم تمر بضعة أيام على موته موضعًا، ليُزيح بالقماش كليًا بعد ذلك فينكشف للعلن جسد السجين.

علت همهمة المشاهدين لذلك الجسد الذي تعرى نصفه العلوي وقد تلون بزُرقة الموت، نظر (جيوفاني) نحو مُعاونًا التمريض، ليهمّا بحمل الجسد الهالك، ويجاهدا التحرك لوضعه فوق المقعد ثم تحركا بعد ذلك مبتعدان عنه، ليجلس (فوستر) المُبارح للحياة متبوئًا المقعد بجسد أرخاه الموت.

اقترب (جيوفاني) من المقعد وبرفقته مساعده (أندرسون) ليشرعا في خطوتهما التالية، أمسك الطبيب الشاب بالمشرط الطبي وبدأ في شق المنطقة اليسرى للصدر، لتظهر بعد ذلك رؤية الأضلع التي يسكن القلب موضعه خلفها.

تحرك (جيوفاني) ليمسك بالقطبين الموصولين بالأسلاك النحاسية من جانب الجهاز الكهربائي، ليأتي بها إلى المقعد ويضعها فوق إحدى مسنديه، أمسك بإحداها وبدأ في دفع يده من بين ضلعي الصدر المقاربين للقلب ليسكنه في موضعه، لتأتي الخطوة الثانية من التجربة، وهي إيصال القطب الكهربائي للعضو الآخر، فإذ بـ (أندرسون) يُحكِم قبضتي يديه على رأس المتوفي، ليتجه (جيوفاني) إلى مؤخرة الرأس ويبدأ في تفتيت العظام الجدارية بمؤخرة الجمجمة، فأمسك بالقطب النحاسي الآخر بعد ذلك لينغرز

بالجذع السُفلي من المخ.

وقف الاثنان يطالعان موضع تجربتهما بعد الانتهاء من عملهما، ليراقب الجمع الخطوة التي طال انتظارها، فتحرك الاثنان مبتعدين بخُطى قليلة عن الجثمان، لينظر (جيوفاني) إلى العالِم (فولتا) في إيماءة آمرة للشروع في المرحلة الأخيرة.

نظر (فولتا) إلى (جيوفاني) بعينين تشعين إصرارًا وعزيمة، وقد أمسك بالقرص الدائري المسئول عن التحكم في درجة قوة دُفعات الشحنات الكهربائية الموصِلة للأسلاك، ليديره نحو القُدرة الأولى، فأصدر الجهاز الكهربائي على الفور شذرًا خافتًا، نتج عن التفاعل الكهربائي المؤدي لشحن التيار داخل محولاتها المعدنية، فتنطلق شحنات التيار الكهربائية نحو الأسلاك، لتسير بها وتصل لوجهتها نحو العضوين المرتكزين بهما.

انتفض السجين فور أن تملكت الكهرباء من جسده، ليتفزز لثوانٍ ويعود لسكونه فورغلق (فولتا) لقرص التحكم، تحرك حينها (جيوفاني) للأمام ليُعاين الجثمان الجالس في مواجهته منتظرًا خفوق صدره، ولم يُر له من أثر، فأسرع إلى موضع الجهاز يتهامس في النقاش مع رفيقه (فولتا)، ليقررا زيادة الشحنة الكهربائية بالجسد.

أدار (فولتا) القرص نحو مؤشر القدرة الثانية، فانطلقت التيارات الكهربائية نحو جسد السجين مرة أخرى، لينتفض عن موضعه ويزاح جسده للأسفل قليلًا من فوق مقعده، وتتراخى رأسه لتميل جانبًا.

لم تكن الحياة حتى الآن من نصيب هذا الجسد الذي عاد لسكونه بعد انتفاضاته الأخيرة، فهرع (جيوفاني) نحو السجين مرة أخرى منتظرًا ظهور أي بادرة أمل للنجاح، ناظرًا إلى عيني المتوفي الغارقتين في نوم أبدي، وقد بدى مستسلمًا لموته.

تملك الحنق من نفس الطبيب الشاب حينها، ليقارب يده من رأس (فوستر) المستند جانبًا، فإذا بالتيار الكهربائي الساري بذلك الجسد يصعق يده، فتُطيح بذراعه على الفور، ليتراجع للخلف ممسكًا بيده في ألم جلي، لتأتي من الحشود المُشاهدة للموقف ضحكات ساخرة مما قد نال الأخير للتو.

تحرك (جيوفاني) حينئذٍ بصحبة مساعده (أندرسون) عائدًا إلى (فولتا)، والغضب يتملكه لما ناله من سخرية ومهانة من مشاهديه، مشيحًا بوجهه عن النظرات المستهزئة التي نالت ذلك الحشد، وقد تخلوا عن هيبة مراقبة المشهد من أمامهم لتعلو أصوات نقاشاتهم الساخرة، وقد بدا لهم أنهم أمام إحدى العروض الهزلية التي قرروا الاستمتاع بمشاهدتها حتى النهاية.

ومن وسط الأجساد المترنحة من الضحك والمتهامسة في حديثها، نهضت إحدى السيدات من مجلسها بعينين ملأتهما الرهبة، رافعةً ذراعها في خوف نحو خشبة العرض، مشيرةً بيدها المرتجفة صوب جسد (فوستر) المُتراخي فوق مقعده، ليلتفت إليها من بجوارها ناظرين بدورهم صوب السجين، لتعلو الأصوات القلقة، بينما نهض البعض منهم من مجلسه يُمعن النظر فيما يشاهدوه أمامهم. انتبه الثلاثة حينها لما يحدث من هرج صاخب، فسارعوا الركض نحو

الجثمان ناظرين نحوه بأعين لا تصدق ما تراه.

كان رأس (فوستر) يميل جانبًا نحو عنقه بعين واحدة أغلقها الموت، بينما ترقب الجمع العين الأخرى التي كانت تنظر للأمام مُطالعة إياهم، بجفنٍ مفتوح وحدقةٍ مُتسعة.

وقف (جيوفاني) بعقل شلَّه الذهول لما رآه تاليًا، فقد كان الفك السفلي للسجين يرتجف جانبًا عن موضعه، تصطك أسنانه ببعضها لثوانٍ لينفرج فكه، بينما لم يُبارحه ارتعاشاته القوية، فبدا للجميع أن جثة (فوستر) تحاول إتيان حديث عاجزٍ من فاهه الغاضب، ليعلو حينها صراخ إحدى السيدات التي انتفضت من مجلسها في خوف، وهي تراقب عودة الحياة إلى ذلك الجسد الهالك.

يا لهول ما أدركه القس (بِرهام) حينها، لم يستوعب عقله ما تشاهده عيناه، فدفع عقله بقدميه للتحرك نحو خشبة العرض، متوجهًا بخُطى ترهب لقاء نجاح تلك التجربة، حتى توقفت قدماه عن استكمال خطواتها، ليقف يُطالع (فوستر) وعينه المُتسعة التي شردت في حياة جديدة، رهب القس دومًا قدومها.

تملك الجزع من الحشد، لتتخبط أجسادهم المنجزعة في الإسراع لمغادرة المكان، ليزداد الصراخ مع تدافعاتهم، ومعه يزداد صراخ عقل القس هو الآخر، وهو يحملق في وجه (فوستر) غير مُصدقٍ لما يراه، لتتراجع إحدى قدميه للوراء فور أن بادر جثمان (فوستر) برفع يده المرتعشة للأعلى مشيرًا بها للأمام وقد تملكت الارتجافات الغاضبة من قدميه هي الأخرى، فبدأت بالانتفاض من مجلسها.

لقد أتى يوم الدينونة الموعود، فها هم الموتى يأتيهم البعث من جديد لتتحرك أجسادهم الفانية على أرض الرب دون رغبة له بذلك، لم يستطع القس حينها استيعاب هول ما أدركه عقله، فأحاق الفزع به وهو ينظر نحو (فوستر)، وقد شعر بأن الأخير ينتوي النهوض من مجلسه ليقبض على روحه، ويذيقها الموت الذي تمناه القس له دومًا، فتراجع القس (بِرهام) بخطاه للوراء بجسد مُترنح، بينما قبض بيده على موضع قلبه، وقد اجتاح صدره نغزات مؤلمة أفقدته القدرة على الصمود، فتهاوى جسد القس مغشيًا عليه في النهاية، ولم يحتمل صدمة ما قد أدركه عقله وأصاب قلبه للتو.

هرع المفتش (تشارلز) حينها للداخل ومن ورائه رجال الشرطة نحو القس المُلقى بالأرض، محاولين إفاقته دون جدوى؛ ليصرخ (تشارلز) مستجديًا المساعدة، فينظر جانبًا بعينين فزعتين ترهبان لقاء رؤية (فوستر)، فإذا بالمفتش يُفاجأ بعودة جسد (فوستر) لهدوئه، وقد تراخت يده وتوقفت تشنجات قدميه، ليجلس مُغمض العينين عائدًا لثبات الموت من جديد.

ركض معاوني التمريض نحو القس لإغاثة، فاصطدم أحدهما أثناء تحركه بكتف (جيوفاني) المُتسمر في وقفته، وقد كان يقف يُشاهد موضع تجربته، بعينين تملأهما سعادة جلية لما قد حدث منذ

لحظات. لم يكن حينها قد اكتفى ببصيص الحياة التي سرت بجسد (فوستر)، ليهرع مجددًا نحو الجهاز الكهربائي ويدير مؤشره نحو القدرة الثالثة له.

تفزز على الفور جسد (فوستر) من فوق مقعده، ليعود بعد ذلك للهدوء كليًا دون أن ينال من الحياة نصيبًا، فإذ بأمل الظفر بنجاح قريب يدفع (جيوفاني) لإدارة المؤشر نحو القدرة القصوى من تدفق الشحنات الكهربائية، تاركًا إياه دون غلقه، لتشتد شذرات الجهاز الصاخبة مُعلنةً فيض طاقته القصوى من الكهرباء، والتي تملكت من الجثمان لتباغته شحناتها دون توقف. انتفض جسد (فوستر) مرة تلو الأخرى من قوة التيارات الكهربائية الصاعقة له، فاعترى القلق البالغ عقل (فولتا) وقتئذٍ، ليركض نحو الجهاز محاولًا إيقافه وهو يخشى عاقبة الخطوة الحالية، تلك العاقبة التي نالت من جسد (فوستر) قبل أن تُقارب يد (فولتا) الوصول لدائرة التحكم.

بدأت قوة سريان التيار الكهربائي التي تملكت من جسد (فوستر) في توليد حرارة كبيرة، كانت كافية بأن يندلع لهيب النيران في ذلك الجسد الهالك، لتنبعث الأدخنة من جسده وتشوي نيرانها أضلعه حتى وصلت إلى ترقوته، حارقةً لحم وجهه، لتظهر عظام فكه من وسط جلده المُتساقط عنه.

صُراخٌ عارم، وأقدام تلوذ بالفرار من هول ما تراه، ترتطم الأجساد ببعضها لتسقط أرضًا، فتطأ فوقها الأقدام الأخرى مولية الأدبار في فزع، ليتبقى القليل من الجمع مشدوهي الأفواه لما يحدث من

كارثة، فتجرأ البعض منهم لاعتلاء خشبة العرض ومعاونة البقية في محاولة إطفاء النيران المشتعلة بجسد (فوستر).

تحرك (جيوفاني) بعدها نحو الأمام، مخترقًا تحركات الغير بعينين تملأهما نشوة نجاح طال انتظاره، فحتى وإن لم تُكلل التجربة بالنجاح الكُلي لإعادة الحياة، إلا أن ما بدر من (فوستر) حينها، كان كفيلًا بتتويج تجربته بالنجاح وإثباته لنظرية، لم يقدر غيره من سائر البشر على تنفيذها.

أكمل (جيوفاني) خطاه ليقف مواجهًا لبقية الجمع المتواجد من أمامه، رافعًا يديه للأعلى في زهو، صائحًا بما لم يتوقع الجميع سماعه.

- "أين ربكم اليوم؟ ... لعله يراني أنبش في خبايا أسراره، فيوقن بأن خدعة الموت لم تعد تنطلي عَليّ بعد الآن".

ثم وثب من فوق خشبة العرض، لتطأ قدماه أرض الجنون.. متوجهًا للحشد القلِق الذي أخذ بالنظر نحوه في نفور، ليكمل وهو يرفع ذراعيه في زهوٍ وفخر:

- "لقد أصبحت الآن السبيل نحو المستحيل، ولن يهنأ لي بال حتى أظفر برؤية البعث مجددًا على يداي هاتين".

قاده جنون عقله حينها ليتوغل وسط الجمع الذي بدأ بتوجيه اللعنات له نافرين من حديثه، فتدفع الأيدي بكتفي (جيوفاني) دون أن يسترعي لهم همًا، مكملًا توغله من بين دفعاتهم الغاضبة، بينما يبيح فوه بهرطقته التي علت عقله. سار حينها من بينهم بخطوات

يُغلفها الغرور، رافعًا رأسه في شموخ لثقته في قدرته على إعادة الموتى للحياة مرة أخرى.. ليتسمر في وقفته للحظات بعد ذلك، فينكس رأسه رغمًا عنه وقد اجتاح الألم جسده.

أسكت الألم لسانه عن مواصلة هرطقته، لينظر نحو خصره، فيرى بقعة حمراء أخذت في الاتساع بقميصه، مُخضِبة إياه بالدماء المتدفقة منه، فضغط على جانبه متألمًا من قسوة الطعنة الغادرة التي أصابته.. دون أن يعلم فاعلها.

تهاوى جسده حينها على الأرض، بينما لم تبارح الابتسامة الممتزجة بالألم فاه، وقد أخذت عيناه في الانزياغ، لتتملك الرؤى الضبابية من عينيه، وهو يشاهد أمامه نظرات الفزع التي أصابت الحشد المُراقب لموته الوشيك.(1)

* * *

---

(1) توفي القس بعد ساعات قليلة من مرور تلك التجربة، إثر أزمة قلبية حادة أصابت قلبه، ولم يحتمل هول ما رآه في نهاية الأمر.

المرجع: الوثائق الخاصة بجريدة (نيو جيت كاليندر/New Gate Calendar).

الفصل الأخير

(طموح لا ينتهي)

ليلٌ حالك.. وسماءٌ مُلبدة بالغيوم تتوعد بنحيبٍ قريب، تتراقص الصواعق في كبدها فتفتته إربًا، يعلو صراخ الرعد في جوفها بدويٍ يكاد يصُم الآذان، وكأن السماء تصرخ في غضبٍ من هول ما تقترفه الأيدي الآثمة على الأرض.

ومن وسط صوت الرعد الصاخب، أفاقت إحدى ضربات الرعد في السماء عقل (جيوفاني) من سبات نومه، ليشعر بوهن جسده محاولًا فتح جفنيه المُتعبين، فتنقشع غشاوة بصره رويدًا، ويمعن النظر فيما حوله، فيهتدي بصره نحو ساعة الحائط المُثبتة في الجدار من جواره، التي تشير إلى مرور بضع ساعات بعد منتصف الليل، حاول التحرك حينها، ليباغته ألم بالغ بخصره، فألتفت للجانب ناظرًا نحو جرحه الغائر.

تحسست يده في تروي جُرحه المُقطب، ليئن في ألم فور ملامسته إياه، تأمل جسده المُلقى على إحدى الأسِرّة الطبية، ليشيع بصره بعدها بغرفة المشفى التي يتواجد بها، ليتحامل على نفسه وينكفئ للأمام دون دراية منه بالأنبوب الموصول بمعصمه، والذي أدى انكفاؤه إلى دفع حامل حديدي مُعلق به محلول طبي للوقوع.

انزاحت الدعامة جانبًا لتسقط أرضًا مُحدثة دويًا صاخبًا، فاندفعت إحدى الممرضات من الخارج لاقتحام الغرفة فور سماعها لصوت سقوطها، فتسرع نحوها وتعيدها لموضعها مرة أخرى قبل أن تدفع

في رفق جسد الشاب الواهن مُسندةً إياه للفراش.

نظر (جيوفاني) نحوها ليسألها بصوت خافت يكاد لا يُسمع:

- "أين أنا؟".

ابتسمت الممرضة إليه، لتجيبه:

- "أنت الآن في مستشفى (سانت ماريا/ Saint Maria) حضرة الطبيب".

توجهت بعدها لتُمسك ذراعه وتُعيد تثبيت الأنبوب الطبي به مرة أخرى، قائلةً:

- "لقد احضرك أصدقاؤك مُغشيًا عليك بعد إصابتك بذلك الجرح الغائر، الذي كاد أن يودي بحياتك، لولا عناية الرب وتدخُل الأطباء في الوقت المناسب".

تأمل (جيوفاني) طلتها من جانبه، ليسألها:

- "كم مرّ من الوقت على مكوثي هنا؟".

فعادت الممرضة لابتسامتها الودودة:

"لقد مكثت في المشفى بضعة أيام، وقد جاء صديقاك لزيارتك اليوم".

لم تكن كلمات الممرضة بالهينة من أمرها على عقل (جيوفاني)، والذي باغتت الصدمة عقله، لتتسع عيناه فزعًا وينتفض من ثباته، ليندفع للإمام بقوة فيصرخ متأوهًا من هول ألم خصره، وقد أدى

اندفاعه إلى اطاحة الحامل الحديدي نحو الممرضة، التي تراجعت منفزعة من فعلته. حاول بعدها النهوض من الفراش، فاستند على حافة الفراش وهو يجز بأسنانه من الألم، فاتجهت الممرضة نحوه في قلق لتحاول تهدئته دون أن يتيح لها ذلك، فدفع يديها عنه لينزع الأنبوب من ذراعه في غضب، فتبتعد عن وجهه على الفور خوفًا من ثورته.

تحامل (جيوفاني) في وقفته مُمسكًا بجرحه الذي سكن خصره العاري، ليتجه مترنحًا نحو قميصه المُلقى على أحد المقاعد ويبدأ في ارتدائه، ليُعلي من فوقه معطفه، منتويًا المغادرة بوجه اعتراه القلق مما قد غفل عنه عقله الغائب.

اندفع (جيوفاني) في طرقات المستشفى يستند بجسده على الحائط، بينما يقبض على جرحه الغائر الذي عاد ليُخضّب قميصه، وقد عجزت تقطيباته عن إحجام انشقاقه مرة أخرى، فأسرع من خطاه المترنحة للخارج دون انتباه للأوجه القلقة التي أخذت تعلو في ندائها نحوه، لتمر دقائق ليست بالكثيرة، حتى خرج من بوابة المستشفى، ناظرًا نحو السماء التي لم تتوان في هطول بكائها نحوه، تلافت الأنظار في الأرجاء بحثًا عن أي عربة لإيصاله نحو وجهته التي لا يعرفها أحد سواه، ليجد الشوارع الغارقة في أمطار هذا الليل خالية من أي بادرة للحياة.

حاول الركض حينها بكل ما أوتي له من قوة، متناسيًا معاناته للألم المُنغرز في خصره، فاندفع يُسرع الخطى وقد ابتلَّت ملابسه بالمياه، لتسيل على الأرض ممتزجة بدماء جرحه النازف. مرات

عدة شلّ الألم حركته، ليكمل سيره مترنحًا من هول ملاقاته، مرات عدة توقفت قدماه المُنهكتان لتنصاع لنداء صدره المشتاق لأنفاس تريحها من عناء ركض صاحبها. خُطى كثيرة تبوء بالسقوط أرضًا، يتلطخ وجه صاحبها في وحل الأرض المُتعثر من فوقها، ليعود وينهض مجددًا، يقبض على جرحه النازف في خوف من أن تخور قواه، فلا يقدر على الوصول لمسعاه وغايته.

لم يستوعب عقل (جيوفاني) الوقت الذي مر عليه مخترقًا الطرقات، حتى وصل إلى وجهته في النهاية، ليقف على عتبة منزله الذي دُفن في ظلام حزين، منتظرًا قدوم صاحبه منذ آخر مرة رحل بها عنه. ارتمى بجسده المُهلك نحو باب بيته، ليستدعي آخر ما تبقى من طاقه لديه، ويضع يده داخل جيب معطفه، ليُخرج مفتاح منزله سريعًا، فدفع به في قفل الباب، ليدفع بمصرعه على الفور، ويهرع للداخل بخُطى لا تعبأ بالظلام المُحيط بها، ليتجه إلى المعمل الذي احتفظ بداخله في السابق.. بما لم يستطع صبرًا للعودة لرؤياه مرة أخرى.

تعثرت أولى خطواته بالداخل في حِلكة الظلام من حوله، ليتحسس سريعًا موضع مصباح تواجد سابقًا فوق الطاولة من جواره، ارتعشت أنامله في محاولتها لإنارة المصباح حتى نجح في النهاية. توجه للأمام ليُكمل خطاه نحو خِزانة تقبع في إحدى جوانب الغرفة، ليطيح ببابها ويدفع بيديه المُتلهفة للداخل، ممسكًا بما قد خبأه سابقًا بعيدًا عن أعين زائري هذا المعمل.

أحاط (جيوفاني) يديه حينها بقنينة امتلأت بمحلول الفورمالين،

ليضعه من فوق سطح الخِزانة ويُغرق يديه داخل القنينة، فيُخرِج منها رأس منحور تدلت خصلات شعره المنسابة على وجهه الشاحب، لتتعذر عينا الشاب عن رؤية وجه من طال شوقه للقائها.

تحسس (جيوفاني) بيديه وجه والدته، ليُبعد عنه خصلات الشعر الفضية المُبتلة، ثم اقترب بوجهه من وجهها، متأملًا شرود عينيها الغائبتين عن الحياة.. لم تكن رائحة الفورمالين بالهينة من أمرها، فأغمض جفنيه لثوانٍ وهو يتذكر رائحة رأس والدته التي لم تخل يومًا من الطيب، حتى وهي على فراش مرضها، لتؤرق تلك الذكرى الطيبة عينيه، فيحاول أن يتمالك عبوس وجهه، ويتناسي تلك الرائحة الخانقة لذلك المحلول.

رسم (جيوفاني) ابتسامة المُستقبِل لحبيبته على شفتيه، وهو ينظر إلى وجه والدته العجوز، ليتملى النظر إليها ويبدأ بحديثه لها، وقد طال اشتياقه:

- "والدتي العزيزة، أعتذر عن تركي لك بمفردك وحيدة طيلة الفترة السابقة، فتغيبي عن لقائك كان رغمًا عني".

جذب بأطراف أنامله مقدمة وجنتيها ماطًا شفتيها، ليصطنع بسمة زائفة، يحتاج أن يراها ويصدقها، وهو صانعها، فتتهلل أساريره لرؤية هذا الوجه المُبتسم، ليكمل:

- "اليوم أسعد بإخبارك بنجاح مسعاي.. لقد أوشك اليوم الذي أستطيع الإيفاء بوعدي لكِ بالعودة للحياة مجددًا".

رفع (جيوفاني) يديه للأعلى ممسكًا برأس والدته، مُعاودًا

الحديث:

- "قريبًا سوف أنعم بالحديث معك من جديد، فتملئين المكان ببهجة قد طال الاشتياق إليها".

ثم صمت لثوان وقد علت النظرات الواثقة عينيه، التي عاد بريقها من جديد بالأمل الذي بات يقينًا في كل ما هو آت، مكملًا الحديث:

"ومن يعلم ما قد يحدث في الغد.. فلربما أتمكن يومًا من الحصول لكِ على جسد جديد لم يصبه الوهن بعد، فتأتي بخُطى فتيّة لتجاوريني في صحبة أبدية لا موت بعدها، فقد نلت نصيبك من موتتك الأولى، وهنا ستكون جنتك في البيت الذي أصبح موحشًا بدونك، وفي القريب سوف أعود لأستكمل خُطاي، فكما حدثني عمي في السابق .. إن العلِم لا يعرف للمستحيل من طريق".

* * *

النهاية

ما بعد الأحداث

- عانى الطبيب (جيوفاني) بعد فقدانه لوالدته من متلازمة (هلوسة الفُقدان/Bereavment Hallucinatin)[9]، التي أدت لإحساسه الدائم بتواجدها بالقرب منه.

- غلبت بعض الآراء على تواجد السيد (والستون كرافت شيلي/ Wollstone craft Shelly) أثناء ذلك العرض الخاص بالتجربة الشهيرة للطبيب (جيوفاني)، الذي قصّ رؤياها على فتاته الصغيرة حينها، لتُلهِم تلك التجربة بعد ذلك عقل الكاتبة (ماري شيلي/ Mary Shelley)، وتقوم بكتابة أشهر الروايات في التاريخ.

- أدت تجارب الطبيب (جيوفاني) العلمية إلى إتباع الكثير من العلماء لخطاه، حيث قام علماء آخرون مثل العالم الألماني (كارل وينهولد/ Karl Weinhold)، والعالم الأمريكي (روبرت كورنيش/ Robert Cornish)، وغيرهم بتجاربهم الخاصة، محاولين إنجاح ما كان يظنه الغير مستحيلًا، لتشهد تلك الحقبة من التاريخ أسوأ التجارب البشرية نحو السعي لإحياء الموتى.

- أحدثت التجارب العلمية للطبيب (جيوفاني) ثورة غضب عارمة بالبلاد، ليقوم الكاتب الشهير (توماس ج. فيسندن/ Thomas G. Fessenden) بنشرعريضة شعرية، موجهة إلى الكلية الملكية للأطباء تحت عنوان (الجرثومة الرهيبة/ Terrible Tractoration)، التي تشجُب تجارب إحياء البشر، مُنددًا بتلك الجرائم التي تقام ضد الرب، والتي أشار بها إلى ذلك الطبيب،

وتجاربه العلمية المُجحفة.

وإليكم نبذة من العريضة الشعرية الخاصة بالكاتب (توماس ج. فيسندن/ Thomas G. Fessenden):

For he, 'tis told In public papers

Can make dead people cut droll capers.

To raise a dead dog he was able

Though laid in quarters on a table.

With powers of these Metallic Tractors

He can revive dead malefactors.

And is reanimating, daily

Rogues that were hung once, at Old Bailey.

And sure I am he'll break the peace

Unless secured by our police.

For such a chap, as you're alive

Full many a felon will revive.

And as he can, no doubt of that

Give rogues the nine lives of a cat.

Why then, to expiate their crimes

These rogues must all be hung nine times.

والتي تُترجم إلى العربية كالآتي:

إنه من قيل عنه في الصحف العامة

إنه يستطيع جعل الموتى يرقصون بطرافة.

كان قادرًا على إحياء كلب ميت

على الرغم من أنه كان مقطعًا إلى ربعين.

بقدرته على استخدام الجواذِب الحديدية

يمكنه إحياء موتى المُجرمين.

فهو يستطيع إحياء الأشرار كل يوم

والذين تم شنقهم سابقًا بأمر من المحكمة.

إنني متيقن من قدرته على تحطيم السلام العام

ما لم يتم تأمينه من قِبل شرطتنا.

لمثل هذه الفرصة فهو حي

ولهذا فسوف يحيا الكثير من المجرمين.

ولا شك في استطاعته عمل ذلك

وإعطاء المجرمين تسعة أرواح كالقطط.

ولهذا فدلالة كفارتهم عن جرائمهم

يجب أن يتم شنقهم مرات تسع.

(Giovani Aldini-جيوفاني آلديني)

توفي الطبيب (جيوفاني) عام 1834م، عن عمر يُناهز السبعين عامًا، وقد أفنى عمره في سبيل تجاربة العلمية التي حلم دومًا بتحقيقها، ليتوّج اسمه كأول عالم اقترب من إنجاح فكرة، طالما جالت بالعقول.. فكرة إحياء البشر.

كواليس الرواية

- كان الهدف من إضافة الرسومات داخل الرواية، هو محاولة إحياء نوستاليجا الروايات القديمة، فتُضفي على العقول حنينًا طال افتقاده لروايات نشأ جيلي على مطالعتها.

- لم تكن فكرة إحياء الموتى عن طريق الكهرباء بالجديدة على العقول، ولكن كان همي الشاغل هو سرد أولى المساعي الحقيقية نحو الإقدام على تلك الفعلة في تاريخ البشرية، والتي ألهمت بعد ذلك العقول لتلك الفكرة والخيال الذي يُصاحبها.

- على الرغم من امتزاج واقع حياة الأشخاص الحقيقية داخل الرواية، بالأحداث الخيالية التي خططتها بقلمي، إلا أنه يمكن تتبع الخطى الفعلية لهم دون مزج روائي، من خلال المصادر والمراجع التي تم كتابتها في الهوامش.

- من خلال بحثي عن خيوط الرواية ومراجعة الأحداث التاريخية لمساعي العلماء نحو تجارب الإحياء، وجدت الكثير ممن حاولوا بعد ذلك السعي نحو إنجاح تلك الفكرة، والتي لا زالت تلك التجارب تُقام حتى الآن في محاولة لمخالفة إرادة الخالق في شئون عباده، ولكن كلما توغل الكثير منهم في تلك التجارب، كلما أدركوا عظمة الله وتجليه في خلق مخلوقاته، لتأتي الآية الكريمة {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} لكي لا تُبارح ذهني، كلما تتبعت خطاهم العاجِزة في النهاية.

- سوف يظل الموت والبعث أسرارًا عظيمة تتجلى فيهما قدرة الله

سبحانه وتعالى، وستظل الآية الكريمة {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قليلًا} هي الدليل الذي سيصل إليه في نهاية الأمر، كل من حاول اكتشاف تلك الأسرار، ووجب التنوية بأنه لم يكن الهدف من كتابة الرواية، هو تناول فكرة جواز إحياء الموتى وبعثهم من جديد، وإنما كان الهدف هو تسليط الضوء على ذلك المسعى الذي لم ولن يُكتب له النجاح أبدًا.

- وفي النهاية.. أتمنى أن أكون استطعت تقديم ما قد أمتع عقولكم، وإلى اللقاء قريبًا مع رواية جديدة في توجه أدبي مُختلف.

عن الكاتب

المؤلفات السابقة للكاتب.

- رواية (أنتروبوفاجيا)، وهي من أدب الرعب التاريخي.

الرواية الحاصلة على المركز الأول في الأفضل مبيعًا في دار إبهار للنشر والتوزيع بمعرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2023 ، والأفضل مبيعًا في معرض بغداد الدولي عام 2023، وتم ترشيحها ضمن فئة أفضل رواية على منصة (iRead).

النبذة الخاصة بالعمل:

أَنْتَ عَلَى أَعْتَابِ أسْوَأ فَتْرَة في تَارِيخُ البِلاد، الحُقْبَة المُظْلِمَة التي كانت تُقاد بِدَافِعٍ واحِدٍ لا ثانٍ له.. وهو الجُوُع، فَأكَل المَصْرِيُون بَعْضَهُم البَعْض، لِتُلْعَن الأَرْضَ ومَنْ فِيها، ويَعِثُ الفَسَادُ طيلة سَبْع سَنَواتٍ بِهَا.

لِتُخْطَف الأَطْفَال مِن عُقْرِ دِيارِهَا..

وتُزْهَق الأَرْوَاح لِتَذْهَب لِبَارِئها دُوُن أَيْ ذَنْبٍ لها..

فَيُؤْكَل السَّائِر عَلَى الأَرْضِ والمَدْفُون فِي جَوْفِهَا.

سنواتٌ طِوال مِن الرُعْبِ والأَهْوَالِ قد مَرَّت على البِلاد، لم يَعِشْ غَالِبِيَّة أَصْحَاب تِلك الحِكَايَات ليَرْوُوها..

لَرُبَمَا يَكُون قَدْ وَصَلَ إلى مَسَامِعِ البَعْضِ مِنْكُم القَلِيل عَن تِلك الشِّدَّة، ولَرُبَمَا يَكُون البَعْضُ الآخَر عَلَى عِلْمٍ بِالكَثِيرِ عَنْهَا، ولَكِنَّكَم

حَتْمًا لا تَعْلَمُون شَيْئًا عَمَا سَوف أَقُصُه عَلَيْكُم الآن.

- رواية (ديمنولجي- حقيقة ما حدث في مقاطعة إسكس عام 1969)، وهي من أدب الفانتازيا الواقعية.

الرواية الحاصلة على المركز الأول في الأفضل مبيعًا في دار إبهار للنشر والتوزيع بمعرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2022، والأكثر مبيعًا في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب عام 2022، والأكثر مبيعًا في معرض الرياض الدولي للكتاب عام 2023، وتم ترشيحها ضمن فئة أفضل رواية على منصة (iRead).

النبذة الخاصة بالعمل:

"وَثَّقَتْ البشريّةُ على مدارِ الأزْمنةِ بمختلفِ حضاراتِها وثقافاتِها ظهورَ العديدِ مِنَ المخلوقاتِ الشيطانيّةِ؛ التي توجَدُ بيننا وتعيشُ في عالمِنا هذا، ووضعتْ البشريّةُ بعضَ التصنيفاتِ لتلكَ المخلوقات في علمٍ يختصُّ بدراستِهم، وأطلقوا عليه اسمَ "ديمونولجي".

وبمرورِ الأزمنةِ وتفاوتِها، استطاعتْ تلكَ المخلوقاتُ إخفاءَ أيِّ أثرٍ لها، وتظهرُ أبسطُ الدلائِلِ التي تؤكّدُ وتدلُّ على وجودِها، خلال كلِّ حِقْبَةٍ مِنَ الأعوامِ لتأتي ثلاثُ حوادث في وقتٍ ليسَ بالقريبِ، لتُلقي الضوءَ وتُسلِّطُه على ظهورِهمِ مرّةً أخرى.

نشَرت جريدةُ "كولشست الإنجليزية" عام 1969 الإعلان عن ثلاثِ حوادث قتلٍ مريعة لم يُعثر على قاتِلهم، على أيّ أثرٍ!

لتأتي شاهدةٌ تقفُ على كلِّ ما حدث؛ لتصف الفاعلَ بجملةٍ واحدةٍ: "مخلوق لم تطأ قدماه عالمَ البشرِ"!

وإليكمُ القصّةَ الكاملةَ حولَ حقيقةِ ما حدثَ في مقاطعةِ إسكس عام 1969.

تحتوي الرواية على أكثر من ثلاثين مرجع علمي في علوم شتى مثل:

- علم الأمراض النفسية والعصبية
- الفلسفة.
- الأدب العالمي.
- التاريخ والجغرافيا.
- علم الأساطير.
- علم الشياطين.
- الكيمياء.

أشرف على المحتوى العلمي للرواية الطبيب/ محمد رضا الفقي، أستاذ ورئيس قسم الأمراض النفسية بالأكاديمية الطبية العسكرية بجمهوريه مصر العربية.

- رواية (شِمياطِس)، وهي من أدب الرعب الشرقي.

الرواية هي الأكثر مبيعًا لدي دار إبهار للنشر والتوزيع بمعرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2021، والحاصلة على لقب الرواية الأكثر جدلًا في معرض القاهرة الدولي 2021.

النبذة الخاصة بالعمل:

ثمانية أشياء ستتعلمها بعد الانتهاء من قراءتك لرواية "شِمياطِس".

• أفواه الأموات هي أفضل مكان لتخبئة أعمال السحر.

• إذا رأيت قطة تُحدق في الطرقة الخاوية للمنزل، فاعلم أن أحدًا يقف هناك.

• إن سرت قشعريرة في جسدك ليلًا وأيقظتك، فتأكد أن غطاء الفراش المُلقى على الأرض بجوارك لم تكن أنت السبب في إيقاعه.

• لا تقف في حضرة شخصٍ ممسوسٍ إلا إذا كنت تعرف جيدًا ما عليك فعله.

• إن مررت بجوار شخص أنت متيقن من وفاته منذ زمن بعيد، فأكمل طريقك دون أن تلتفت إليه.

• لا تنصت للجيران الذين يتحدثون عمن يطوف في الهواء ليلًا فوق الحقول الزراعية.

• إذا جاء منتصف الليل، لا تدخل حمام المنزل بغتة حتى لا تُبصر ضيوفه.

• إن علمت أن هناك قرية يقيم بها الجن والبشر على حدٍ سواء، فلا تذهب إلى هناك.. لا تذهب إلى شِمياطِس.

---

[1] المرجع: كتاب " The Science of Life and Death in Frankenstein" للكاتبة "Sharon Ruston".

[2] تم القبض على المدعو (جورج فوستر/ George foster)بتاريخ 4 ديسمبر عام 1802م، ليتم إدانته بتهمة قتل زوجته وابنته غرقًا في مياه (قنال بادينجتون/ Paddington Canal).

المرجع: جريدة (نيو جيت كاليندر/New Gate Calendar)

[3] كان العالِم (فولتا) من أشد المعارضين لنظرية (لويجي)، الذي كان يرجح غريمه في تلك الآونة وجود سائل مولِد للكهرباء بجسد الحيوانات يساعد على سريان طاقة الكهرباء بداخل الجسد، بينما علَّل (فولتا) تحرك الأعصاب لسريان طاقة الكهرباء الخالصة بها، وتطور بعد ذلك النزاع بينهما حول القدرة الحقيقية لكل من الجهازين الخاصين بهما على توليد التيار الكهربائي وأدائه.

المرجع: وثائق الصحيفة التاريخية (Histiry Of The Neuroscinces) للكاتب (Nahum Kipnis).

[4] كان المعتقد الديني السائد في ذلك العصر خاطئًا، حيث اعتبر البعض أن تقطيع جثامين الموتى وفصل أطرافهم عن أجسادهم، يمنعهم من البعث يوم الدينونة.

المرجع: كتاب "Dissecting the Criminal Corpse" للمؤرخة Elizabeth ""Hurren.

[5] يُمكن الاطلاع على تفاصيل الجريمة، وشهادة الشهود دون أي مزج روائي من خلال وثائق السجن المنشورة بجريدة (نيو جيت كاليندر/New Gate Calendar).

[6] سجلت الوثائق الخاصة بالسجن محاولة السجين الإقدام على الانتحار، إثر خوفه من هاجس الاستيقاظ بعد الموت.

المرجع: الوثائق الخاصة بجريدة (نيو جيت كاليندر/New Gate Calendar).

[7] كان النص الجنائي الخاص بقانون الإعدام، ينص على أنه في حال عودة الحياة للمحكوم عليهم بالموت شنقًا، تحت أي ظرفٍ كان، أن يتم اقتيادهم مجددًا لمنصة الإعدام لتنفيذ حكم الشنق بهم، وإحقاق الموت المؤكد لهم.

المرجع: النص القانوني لأحكام الجنايات. Section 345 (5) of Code of (Criminal Perocedure

[8] ملحوظة هامة: جميع الأفعال التي أتت للسجين ج.(فوستر) في التجربة الآتي ذِكرها، هي أحداث حقيقية تم توثيقها بما لا يدع مجالًا للشك، وقد تم سردها دون أي خيال أو مزج روائي.

المرجع: الوثائق الخاصة بجريدة (نيو جيت كاليندر/New Gate Calendar).

[9] "هلوسة الفُقدان/ Bereavment Hallucinatin" تصيب تلك الهلاوس البعض ممن فارقوا أحباءهم، وغالبًا ما تحدث في فترة الحِداد الأولى بعد الفقدان، فتؤدي تلك الهلاوس إلى تفاعلات في الحواس، فقد يرى الشخص فقيده بالقرب منه، أويسمع صوته، ويستشعر إحساس لمساته له.

المرجع: كتاب "The Principles and Practice of Medicine" ، للطبيب "William Oslor".